علّمتني سُورة الإنسان

الطبعة الأولى
الترقيم الدولي:

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
ربيع الأول ١٤٤٣هـ - تشرين أول - أكتوبر ٢٠٢١م.

يوزع مجاناً وصدقة جارية:
عن أرواح أموات جميع المسلمين والمسلمات

طباعة وإخراج
وليد محمود شكشك ٠٣ ٢١ ٧٦ ٤٣

لبنان - طرابلس

www.3alamatnisurah.com
www.3alamatnisourat.com

علّمتني سُورة الإنسان

جمع وإعداد
م. عامر كبّارة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى كل مسلم ومسلمة

وأخصُّ عائلتي الكريمة الكبيرة والصغيرة، وبخاصةٍ الأحفاد الأحِبَّة الذين أرجو الله عزَّ وجلَّ أن يحفظهم ويهديهم إلى الطريق الحق الذي ارتضاه.

وأرجو الله عزَّ وجلَّ أن ينفعنا بما نقرأ، كما أسأله عزَّ وجلَّ التوفيقَ والقبول؛ إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين

*****

المُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

قـرأتُ مقالًا اسـتوقفني للدكتور محمـد راتب النابلسـي - حفظه اللـه -، ذَكَر فيه أنَّ صديقًا له كان في أمريكا، ودخل إلى مسـجد، فوجَدَ شـخصًا يبدو من مَظْهَره أنه من أرقى[1] الأُسَر، وشخصيَّتُه محترَمةٌ جدًّا، وهـو ينظِّـف المسـجدَ، فقال له: أنـت مِنْ أيـن؟ فقال: أنا مـن أمريكا، فقـال له: ماذا تعمل؟ قال: بأعلى الرُّتَـب البحرية في أمريكا! قال: كيف أسـلمتَ؟ فقال له: ذهبت إلى الشرق بمهمَّة، فالتقيتُ هناك رجلًا داعية أقنعني بالإسـلام، بعدَ قراءته لي آيةً من القرآن الكريم، وهذه الآية تُريحُ الإنسـان، وهي بشارةٌ[2] لكم ولي، فما دام اللهُ تعالى أَسْمَعَنا الحقَّ فلعلَّ فينا خيرًا، فالآية هذه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣].

هذا الإنسـانُ غير المسلم بحث وأراد الهُدَى، وأتمَّ اللهُ له ما أراد.. ما الذي جَعَله يبحثُ عن الهُدَى؟! سبحان الله.

١- أرقى: مِنَ الرُّقِيِّ، وهو الامتياز والوَجاهة.

٢- بشارة: خبَرٌ مُفْرِح (لكم أيها المسلمون).

وبالمناسبة، هناك أمثلةٌ كثيرة من الغرب على أشخاصٍ مُهِمِّينَ ويتبوَّؤُون (يشغلون) أَرقَى مجالاتِ العِلم، نراهم فجأةً ينتفِضُون[١] ويسلكون طريقَ الهدايةِ والإيمانِ والإسلامِ، ويَصِلُون إلى ما فيه الطمَأنِينةُ النفسيَّة والرُّوحيَّة وَسْطَ بِيئَتِهِم الماديةِ المُغْرِيةِ والمنتشِرة بقوةٍ طاغيةٍ[٢] في كلِّ المجتمعات، بينما نجِدُ في مجتمعاتِنا العربيةِ والمسلِمَةِ مِن حينٍ لآخَرَ بعضَ الناسِ المتعلِّمينَ المعروفين والمشهورين والملتزِمين[٣] مِنْ كِلَا الجِنسَين يتراجعون عن بعضِ مبادئهم ومظاهِرِ إيمانِهم؛ مُتَذَرِّعِينَ[٤] بأقوالٍ وحُجَجٍ واهيةٍ[٥] لا تُسْمِنُ ولا تُغنِي مِن جُوعٍ، باسمِ الحُرِّيَّة، وأنَّ الإيمانَ في القَلبِ أفضلُ من المَظاهِر، وتَرَاهُم بعدَ ذلك شيئًا فشيئًا يتَحلَّلُون[٦] عن بعضِ هذه المَظاهر! فأين إيمانُ القلبِ الذي تحدَّثُوا عنه؟!

الحقيقةُ أنَّ هذا الخبرَ - ومِثْلُهُ كثيرٌ - قد لَفَتَ نظرَنا إلى «سورة الإنسان» في القرآن الكريم، كما رجع بنا في الذاكِرَةِ إلى مَقالَةٍ أُخرَى في كتاب «ركائز الإيمان بين العقل والقلب» للشيخ محمد الغزالي - رحمه الله تعالى - نَقْتَطِفُ[٧] بعضًا ممَّا كُتب فيها - بتصرُّف -:

١- ينتفضون: يعملون بنشاط مفاجئ.

٢- طاغية: جاوزت الحَدَّ المعقولَ.

٣- الملتزِمين: الذين ألزَمُوا أنفسَهم بامتثال أوامِرِ اللهِ واجتنابِ نَواهِيهِ.

٤- متذرعين: مُتَعلِّلِينَ بوسيلةٍ غيرِ حقيقيةٍ.

٥- أقوال واهية: أقوالٍ تافهَةٍ لا قيمَةَ لها.

٦- يتحلَّلُون: يتخلَّصُون ويخرُجون عمَّا التزَموا به.

٧- نقتطف: نختار بعضَ العبارات.

«إنَّ التَّدَيُّنَ[١] مِن أعظَم دَعائِم[٢] السُّلوك الإنسانيِّ، ولكنَّ المَرْءَ لا يختارُ – ابتداءً – الدِّينَ الذي يسير وَفْقَ تعاليمه!

إنَّ البيئةَ التي وُلِد فيها هي التي تُزَوِّدُه بأركان هذا الدِّين، وتُوَثِّقُ[٣] به مَشاعرَهُ.

ثم يَنمُو الإنسانُ –بَعْدُ –، وينمُو عقلُهُ وإدراكُه لِمَا عِندَه وعِندَ غيرِه، وحينَئذٍ يبدأُ جُهدًا عَقليًّا صامِتًا للمُوَاءَمَة[٤] بينَ ما وَرِثَ، وبينَ استقلالِهِ الفِكْرِيِّ الواجب!

ويغلِب في هذه الأحوالِ أنْ يُقِرَّ ما انحدَرَ إليه[٥] عن أُسْرَتِه وقَومِه، فلَنْ يَعْدِمَ فيه جَوانبَ خيرٍ تُغْرِي بقَبُولِه واحترامِهِ، ولَن يَعْدِمَ عندَ الآخَرينَ مَظاهِرَ نقصٍ تجعلُهُ يَصُدُّ عَنهم، ويرَى ما وَرِثَهُ هو أحْظَى[٦] بالاسْتِبْقَاء[٧] والرِّعايةِ.

وأَغلَبُ الناسِ – في كلِّ زمانٍ ومكانٍ – مِنْ هذا القَبيلِ (إلا من رحم ربي).

وعندما يَثُورُ عِراكٌ نفسيٌّ (صراع داخلي) على شيءٍ من الشِّدَّة، فإن الإنسانَ – كي يبقَى مكانَهُ – يُضاعِف إحساسَهُ بما لَدَيهِ مِن خيرٍ مَوهُوم أو حَقِيقِيٍّ، ويضاعِف إحساسَه بما عندَ الآخَرينَ مِن شَرٍّ مَوهُومٍ أو حقيقيٍّ كذلك، ثمَّ يَظَلُّ على عَقيدتِهِ ومَنهَجِه لا يَزيحُ عنها.

١– التدين: الالتزام بالدِّين وأحكامه.

٢– دعائم: ركائز وأُسُس.

٣– توثق: تقوِّي وتثبّت.

٤– للمواءمة: التوافُق والتناسب.

٥– انحدر إليه: انتسب إليه وورثه.

٦– أحظى: أقرب مكانة وأفضل.

٧– بالاستبقاء: الاحتفاظ بالشيء.

ومن هُنا امتلأتِ الأرضُ بأصحاب المِلَلِ والمَذاهِب المُتَناقِضَة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩].

ويبقَى بعدَ ذلك أنْ نتساءلَ: هل (الحق) هو وِجهةُ النَّظَر التي تُكوِّنُها الوارِثاتُ والبِيئاتُ مهما كانت أَثِيرَةً[١] لدَى أصحابِها ومُبَرَّأَةً[٢] مِن كُلِّ عيبٍ؟

والإجابةُ السريعةُ: لا! فما أَكْثَرَ النقائِضَ في هذه الوِجْهَاتِ المُتَبَايِنَةِ. (أي: الجوانب والنواحي المختلفة).

إنَّ الدراساتِ - وخُصوصًا القائمةَ على المَنطِق التَّجرِيبيِّ[٣] والاستدلالِ العَقلِيِّ[٤] -، ينبغي أنْ نُعيرَها[٥] اهتمامًا زائدًا، وأن نتوصل بها إلى إثبات الإيمان الحَقِّ.

وهناك علماءٌ كبارٌ أَوْلَوا هذا الموضوعَ ما يستحِقُّ من عنايةٍ، وأَلَّفُوا فيه كُتُبًا قَيِّمةً...

وكتاب «الإنسان، ذلك المجهول»، لـ «أليكس كاريل[٦]» - الحائز على جائزة نوبل - مِن أعظَمِ الجُهودِ البشرِيَّة عن تجارِبِه عن الإنسان والحياة في ذلك المجال.

١- أثيرة: مُفَضَّلة ومكرَّمة.

٢- مبرأة: خالصة من الذنب أو التهمة.

٣- المنطق التجريبي: الأدلة والأساليب التجريبية من أجل اكتساب المعرفة.

٤- الاستدلال العقلي: التوصل إلى المعلومة عن طريق البحث وإعمال العقل حجةً وبرهانًا.

٥- نعيرها اهتمامًا: نهتم بها.

٦- أليكس كاريل: هو مؤلف فرنسي، كان طبيبًا جراحًا.

إنه وَقْفةٌ من «الإنسان المُعاصِر» ليتأمَّل في نفسه على ضوءِ التَّقدُّم العِلمِيِّ الساحرِ الذي بَلَغَهُ، وليضبِطَ خطواتِه[١]، وهو يجتاز الحاضر إلى المستقبل، مستفيدًا من التجارِب الحصيفةِ[٢] والمعارِفِ الخَصْبةِ[٣] التي أُتِيحَت له، وناقدًا الأخطاءَ التي تَسرَّبتْ إلى مَسيرتِه[٤] على امتدادِ الحياةِ من حيثُ يدري، ولا يدري.

«والإنسان» كائنٌ عظيمٌ حقًّا، ولكنه في غاية التعقيد - كما يقول المؤلف -، وليس من اليسير الحصولُ على عرضٍ بسيطٍ له، وليست هناك طريقةٌ لفَهمِهِ في مجموعِهِ، أو في أَجزائِه في وقتٍ واحدٍ، كما لا توجَد طريقةٌ لفَهم علاقاتِه بالعالَمِ الخارجيِّ.

إنَّ أَشْتَاتَ[٥] العُلوم والفُنونِ التي يُستَعَانُ بها على فَهْم الإنسانِ، قدْ تُلِمُّ بجوانبَ منه، بَيْدَ أَنَّها لَنْ تبلُغَ غَوْرَهُ[٦].

إن «الإنسان» - كما هُو معروفٌ للأَخِصَّائِيِّينَ - أَبْعَدُ مِن أنْ يكونَ ذلكَ الشَّبَحَ الجامِدَ! ورُبَّما تَلاقَتْ جُهودٌ شَتَّى على إبراز مَلامِحِه النفسيَّة والفِكرية... فهل استطاعتْ تلك الجهودُ أنْ تدرك طبيعةَ الإنسان؟ كَلَّا!

لقد عَرَفْنا شيئًا لا بأسَ به عن كِيانِنا[٧] المادِّيِّ:

إنه عبارةٌ عن موادِّ الكيميائيةِ التي تؤلِّف الأنسجةَ وأَخْلَاطَ[٨] الأجسامِ.

١- خطواته: مساره بصورة تدريجية.

٢- الحصيفة: الذكية الحكيمة.

٣- الخصبة: المتسعة بالكثرة والبركة.

٤- مسيرته: طريقة السير وحالته خلال حياته.

٥- أشتات: متفرقة.

٦- غوره: حقيقته وسرّه.

٧- كياننا: وجودنا وذاتنا.

٨- أخلاط: جمع خليط، أي مزيج.

إنه تلك الجَمْهَـرَة[١] المُذْهِلَة من الخلايا والعُصاراتِ المُغَذِّيةِ التي دَرَسَ الفِسيُولوجيون (علماء وظائف الأعضاء) قوانينَها العُضوِيَّة.

إنه ذلـك المُرَكَّب مـن العضلاتِ والشُّـعور (الأحاسـيس)، الذي يحـاول علماءُ الصحـةِ والنفْسِ والمعلمـون أن يقودوه إلـى الدرجاتِ العليا في أثناء نُمُوِّه مع الزمن.

وقـد وصـف اللهُ تعالى هـذا الكِيانَ الإنسـانيَّ في كتابه في سـورةِ الإنسـانِ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:١-٢].

ولَسْنا بصَدَدِ إحصاءِ النُّصوصِ الإسلاميةِ التي تُعلِي مكانةَ الإنسان، وترفـعُ قَدْرَهُ، بل غَرَضُنا تَتَبُّعُ الكِفاحِ الإنسـانيِّ[٢] في هـذا المِضْمارِ[٣]، مُقارَنةً بالتَّوجِيهِ الدينيِّ.

والدِّيـنُ - في نَظَرِنا - هو المصدَرُ الأَوْحَدُ للحقيقة الكاملةِ في هذا المَجَال.

وإذا كانـت تَعاليمُ الدِّينِ غيرَ مُسْـهَبَةٍ (مفصلة) في وصف الإنسـانِ جَسـدًا ورُوحًا، فهي قاطعةٌ[٤] في تقريرِ ما يجـب عليه عَمَلُهُ، وما يُحمَل به[٥]، أي: إنهـا قدَّمَتْ الثمرةَ دونَ عناءٍ، أو النتيجةَ المُسـتَخْلَصَةَ[٦] دونَ إبرازٍ لمُقَدِّمَتها.

١- الجمهرة: الحشد والجمع.

٢- الكفاح الإنساني: المواجهة والعمل والتحمّل والصبر الإنساني.

٣- المضمار: المجال والميدان والحقل.

٤- قاطعة: جازمة.

٥- يُحمل به: يُحسَب عليه.

٦- المُستَخْلَصَةَ: التي تم الوصول إليها.

أما «الدراسات الإنسانية» فهي وَصَّافةٌ[١] للإنسانِ، مُصَوِّرَةٌ لمادَّتِهِ ومَعناها، (وليس لمادتِهِ النفسية) في الأَعَمِّ الأَغْلَبِ، وقَلَّما تَضَعُ قَدَميه على الصراط المستقيمِ بعدَ ذلك الجُهْدِ.

وأَمْثَلُ السُّبُلِ (أي الطرق للوصول إلى الهدف) هو الجَمْعُ بينَ الأَمرَين:

الإحاطةِ بالوحي[٢] الإلهيِّ المَعْصُوم (الدِّين)، الذي رسمَ للإنسانِ وِجْهَتَهُ في صِدْقٍ، وكَفَلَ له ما يَنْشُدُ[٣] لنفْسِه وغيرِه مِنْ خَيرٍ.

والإحاطةُ بالفِكرِ الإنسانيِّ الذي تعمَّق في بَحْثِ الإنسانِ وأَجهزتِهِ البَدَنيَّةِ، ومَلَكَاتِهِ النفسيةِ[٤] والعقليةِ، وأحوالِه الاجتماعية المُتَشابِكَة[٥] مع غيره من الناس.. هذا المَزْجُ جَلِيلُ الفائدةِ؛ لأنه يُتِيحُ لعلماء الدِّينِ اطِّلاعًا واسعًا على طبيعة الإنسان المُجَرَّدَةِ، وحَاجاتِهِ الحقيقيةِ، وهو في الوقتِ نَفْسِهِ يُرِي العلماءَ المَدنيِّينَ الأَشْفِيَةَ[٦] التي وَضَعها اللهُ لذهابِ العِلَل[٧]، والوسائلَ العِلميةَ لارتقاءِ البَشَرِ، وزكاةِ نفوسِهِم وأحوالِهِم..»

[انتهى مقال الغزالي رحمه الله].

وهذا ما جعلَنا نقرأ بتدبُّرٍ وتَفَكُّرٍ سورةَ «الإنسان»؛ للنظَرِ في هذا الإنسان، ولماذا خلقهُ اللهُ تعالى في هذه الحياة.

١- وصافة: صيغة مبالغة من (واصِفة)، أي تحدِّد الأوصاف بدِقَّةٍ.

٢- الإحاطة بالوحي: المعرفة بما يوحي به اللهُ إلى أنبيائه.

٣- ينشد: يرغب.

٤- ملكاته النفسية: صفاته الراسخة في النفس، أو الاستعداد الخاص لتناول أعمالٍ معينةٍ بمهارَةٍ ومَوْهبةٍ.

٥- المتشابكة: المُتَداخِلة.

٦- الأشفية: بمعنى الأدوية.

٧- العلل: الأمراض.

هذه السورة تتحدث عن:

خَلْـقِ الإنســانِ، ومراحِلِ تطـوُّرِهِ في حياتِهِ، ثم تتحـدثُ عن ثلاثِ مسائلَ مهمَّةٍ مَصِيريَّةٍ في حياة الإنسانِ الدُّنيويَّةِ: مسألةِ التكليف، ومسألةِ الهداية، ومسألةِ الإرادةِ والاختيارِ، والتي تُعَدُّ مُتلازِمةً[1] ومُتكامِلةً.

التكليفِ، ومِنْ ثَمَّ الهدايةِ والاختيارِ، وهذه لا تَتِمُّ إلا بعدَ الحصول علـى المعرفة والعلم، وقد أشـار الله تعالى إلى أن وسـائلَ المعرفة في «العين والأذن».

إنَّ اللهَ تعالى وَضَع «وسائلَ الهدايةِ» تحتَ تصرُّف الإنسانِ؛ ولذلك فإنَّ إهمالَ هذه الوسائلِ[2] والمواهبِ[3]، والغَضَّ[4] عنها، واتِّخاذَ السبيلِ المُنافي[5] لها يُعَدُّ كُفرانًا شديدًا.

إنَّ للعَبْدِ اختيارًا ومشـيئةً (إرادة) فـي الفعل والعمل في هذه الدنيا، وسيحاسَب على نتيجتها، وهذه المشيئةُ لا تتعارض مع مشيئة الله تعالى العُلْيا التي لها الفعلُ والعملُ والنتيجةُ وَفْقَ حِكمتِه المُطْلَقَة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

والابتـلاءِ، وهـو وصـولُ الإنسـان إلـى مقـام التكليـف وتحَمُّلِ المسـؤوليةِ والامتحانِ، وهـذه من المَواهِب الإلهيـة العظيمةِ التي أكرم اللهُ تعالى بها الإنسانَ، وجعلَهُ أهلًا للتكليف وتحمُّل المسؤولية.

١- متلازمة: مجموعة من العلاقات المترابطة.

٢- الوسائل: كل ما يحقِّق غرضًا.

٣- المواهب: المهارات الخاصة.

٤- الغضّ: الكفّ والامتناع.

٥- المنافي: المتعارض والمتباعد.

وإنَّ امتحانَ الإنسانِ بحاجةٍ إلى عاملَيْن آخرَين: هما «الهداية» و «الاختيار»، بالإضافة إلى المعرفة ووسائلها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، والتعبير «شَاكِرًا» و«كَفُورًا» يُعَدُّ أفضلَ تعبيرٍ مُمْكِنٍ في هذه الآيةِ؛ لأنَّ مَنْ قابَلَ النِّعمَ الإلهيةَ بالقَبول، واتَّخذَ طريقَ الهدايةِ مَسْلَكًا (أي سار فيه)، فقد أَدَّى شُكْرَ هذه النعمةِ، وأما مَنْ خالَفَ هذا الطريق فقد كَفَرَها.

لقد ذَكَر عُلماءُ التفسيرِ الكثيرَ عن سورةِ الإنسانِ، وقدْ قُمْنا بإلقاءِ الضوءِ عليها، وتبسيطِ وتنظيمِ شروحاتها، وتفسيرِ كلماتها كما شَرَحَها وفسَّرها العديدُ من العلماءِ الأفاضل، وقد ذُكِروا حسْبَ وُرُودِهِم في الأجزاء والنصوص المختلفة في هذا الكتاب، ليَسْهُل على الشباب والعامة قراءتها وفَهْمُ آياتِها وتدبُّرها؛ وقد تَمَّ:

١. بيانُ ترتيبِ السورةِ في المُصحَفِ الشريفِ، وعددِ آياتِها، وأسبابِ نزولِها، وتسميتِها، وفَضلِها، وجُمعتْ من عِدةِ مصادرَ موثوقَةٍ بإذن الله.

٢. شرحُ معاني الكلمات، وذِكْرُ العديدِ من هداية الآيات من موسوعة (أيسر التفاسير لكلام العلي القدير) للشيخ أبو بكر الجزائري - رحمه الله -.

٣. اقتباسُ التفسيرِ الموضوعيِّ للسورةِ مِن كتابِ (نحو تفسير موضوعي لسُوَرِ القرآنِ الكريم) للشيخ محمد الغزالي - رحمه الله -.

٤. شرحٌ وتفسيرٌ تفصيليٌّ للسُّورة أُخِذَ -بتصرُّف- من خواطر ومحاضرات الدكتور محمد راتب النابلسي -حفظه الله-.

٥. الخاتمة وقد اقتُبسـت بتصرف من تفسـير الشـيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى.

وقد راجع ودقَّق هذا البحثَ الأخُ الأسـتاذُ محمد عماد قلب اللوز – حفظه الله –، وهو أسـتاذٌ في الشـريعة واللغة العربية، وقد بذل جهدًا مشكورًا، فجزاه اللهُ عنَّا كلَّ خير.

ونرجـو اللـهَ تعالى أنْ نكـونَ قد وُفِّقْنا إلـى المُراد، واللـهُ مِنْ وراءِ القَصـدِ، وهـو العالِمُ بما في الصُّـدور، وآخر دَعوَانـا أنِ الحَمدُ لله ربِّ العَالمين.

*****

سـورة الإنسان

آيـاتهـا:

سـورةُ الإنسانِ سـورةٌ مدنيَّةٌ، عدد آياتها (٣١) إحدى وثلاثون آية، وترتيبهـا فـي المصحف الشـريف رقـم (٧٩)، وهي في الجزء التاسـع والعشرين.

وقـد قال بعضُ العلماء: إنهـا مكيَّةٌ؛ لأن آياتِها وألفاظَها وأسـلوبَها كالسُّـوَرِ التـي نزلـت في مكة قبـل الهجـرة؛ ولأن «الآثـم» و«الكفور» المذكوريـن فيها كانوا في مكة ولم يكونوا في المدينة، حيث كان الكفار يعرضون على الرسول ﷺ أن يترك دينه على أن يُعوِّضوه، والله أعلم.

تسميتها:

١) الإنسان: لأنها تتحدث عن الْإِنسَان ومراحلِ خَلقِهِ وتطوُّره.

٢) هلـى أتـى: أو ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ ... ١﴾ نِسـبةً إلـى افتتاحية السورة بهذه الآية.

٣) الدهر: نظرًا لورود كلمة الدهر في آيتها الأولى.

٤) أمشـاج: وذلك لورود هذه الكلمة في آيتهـا الثانية، ولم تَرِدْ في موضع آخر في القرآن الكريم.

٥) الأبرار: لحديث الآيات عن الأبرار وما ينتظرهم من النعيم.

أسباب نزولها:

لـم يَرِدْ في كتب أهل التفسـير سـببٌ يتعلق بنزول سـورة الإنسـان بشـكل متكامل، وإنما الثابت لديهم هو سبب نزول بعض آيات السورة، قال تعالى:

١) أخرج الحاكم وصححه عن أبي ذرٍّ قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ ...١﴾ حتى ختمها، ثم قال: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وأَسْمَعُ ما لَا تَسْمَعُون، أَطَّتِ[1] السَّماءُ، وَحُقَّ لَها أَنْ تَئِطَّ، مَا فيها مَوضِعُ أَربَعِ أصابعَ إِلَّا مَلَكٌ واضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ، واللهِ لَوْ تَعلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُم قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُم كثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بالنِّسَاءِ علَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ[2] تَجْأَرُونَ[3] إلى اللهِ تعالى».

٢) ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨﴾؛ إذ نزلتْ في علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذْ كان يعمل أجيرًا[4] لسقي نخيل أحدهم مقابل كميَّةٍ من الشعير، وعندما قبض الشعير طحن ثُلُثَ الكمية، وعند إتمام طَهْيِه أتاه مسكينٌ يسأله الطعام، فدفع له ما طَهَى، ثم أَنْضَجَ الثُّلُثَ الثاني، فأتاه يتيمٌ يسأله، فأطعمه، وعند إتمام الثلُث الأخير من الشعير أتى أسيرٌ من المشركين، فأطعمه، فنزلت فيه هذه الآية؛ إذ قدَّم الطعامَ -على حاجته له وجُوعِه- للمسكين واليتيم والأسير.

٣) قال السيوطي في «لُبَاب النُّقول»: وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير في قوله: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨﴾ قال: لم يكُنِ النبيُّ ﷺ يأسِرُ أهلَ الإسلام، ولكنها نزلتْ في أُسارَى أهل الشرك، وكانوا يأسرونهم في العذاب[5]، ونزلَتْ فيهم، فكان النبيُّ ﷺ يأمر بالصَّلاحِ إليهم.

١- أطت: سمع فيها أصوات.

٢- الصُّعُدَات: المرتفع من الأرض.

٣- تَجْأَرون: تكثرون من الدعاء والتضرع.

٤- أجيرًا: عامل يعمل بأجر.

٥- يأسرونهم في العذاب: أي يأخذونهم أسارى بعد القتال.

٤) أخرج ابنُ عساكر عن مجاهد قال: لما صَدَر النبيُّ ﷺ بالأُسارَى عَن بَدْرٍ أنفَقَ سبعةٌ من المهاجرين على أُسارى مشركي بدر، منهم أبو بكر وعمر وعلي والزبير وعبدالرحمن وسعيد وأبو عبيدة بن الجراح، فقالت الأنصار: قتلناهم في الله وفي رسوله وتُوفُونَهُم بالنفقة[1]، فأنزل الله فيهم تسع عشرة آية من: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾.

٥) وأخرج عبدالرزاق وعَبْدُ بن حُمَيد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد في قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ... ۝٨﴾ قال: وهم يشتهونه، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ... ۝٩﴾، قال: لم يَقُل القومُ ذلك حين أطعموهم، ولكنْ علم اللهُ ذلك مِن قلوبهم، فأثنى عليهم به ليَرْغَبَ فيه راغِبٌ (أي ليحبب ذلك العمل لمقدار ثوابه عند الله).

٦) أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ وهو راقد على حصير من جريد، وقد أثَّرَ في جَنْبِه[2]، فبكى عمرُ، فقال له: ما يُبْكِيكَ؟ قال: ذكرتُ كسرى ومُلْكَهُ، وهُرْمُزَ ومُلْكَهُ، وصاحبَ الحبشة ومُلْكَهُ، وأنت رسولُ الله صلى الله عليك وسلم على حصيرٍ من جَرِيد[3]، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟»، فأنزل اللهُ قولَه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾.

٧) أخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة، أنه بَلَغَهُ أنَّ

١- تُوفُونَهُم بالنفقة: تعطونهم من النفقة ما يكفيهم.

٢- أثَّرَ في جَنْبِه: بانت علامات البساط على جنبه.

٣- حصيرٍ من جَرِيد: بساط من سعف النخل.

أبـا جهل قال: لَئِنْ رأيتُ محمدًا يصلـي لَأَطَأَنَّ عُنُقَهُ[1]، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾.

من فضائلها:

١) سـورة الإنسان من السـور التي تحتوي على الكثير من البراهين والعِبَـر والمواعظ الدَّالَّةِ علـى عظمة الله تعالى، هذا إلى جانب فضل تلاوة السورة كغيرها من سور القرآن الكريم، فلكل حرف حسنة والحسنة بعشرة أمثالها.

٢) جاء عن ابن عباس أن الرسول ﷺ كان يقرأ سورة «الإنسان» في صـلاة الفجر في يوم الجمعة مع سـورة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ﴾، أي: سورة السجدة، [أخرجه البخاري ومسلم].

٣) روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرَأَ سُـورَةَ هَلْ أَتَى، كَانَ جَزَاؤُهُ عَلَـى اللهِ جَنَّـةً وَحَرِيرًا»، وقد حكم العلمـاءُ على هذا الحديث بالضعف، والله أعلم.

أهم محـاورهـا:

١) بيان نَشـأةِ الإنسـانِ وأَصلِـه وخَلْقِه مـن نطفة أَمْشـاجٍ[2]، وبيان هدايته وحرية إرادته.

٢) الحديـث عن جـزاء الأبـرار والصالحين، واسـتحقاقهم للجنة ونعيمها الـذي وصفه الله لهم، وجزاء الكافرين، وماذا أعد الله لهم من عذاب جهنم.

١- لَأَطَأَنَّ عُنُقَهُ: لأدوسنَّ على رقبته، وخسئ أن يفعل.

٢- مختلطة بماء المرأة.

٣) الإشـارة إلى أهميـة اتباع منهج القـرآن الكريم، وسـبيل إجراء أحكامه وتربية النفوس عل حب الخير.

٤) بيان حاكمية[١] المشـيئة الإلهية المُقدَّمة على مشـيئة الإنسـان، والتي لا تتعارض معها، بل هي لزوم التكليف والاختيار.

١- لا حكم إلا حكم الله.

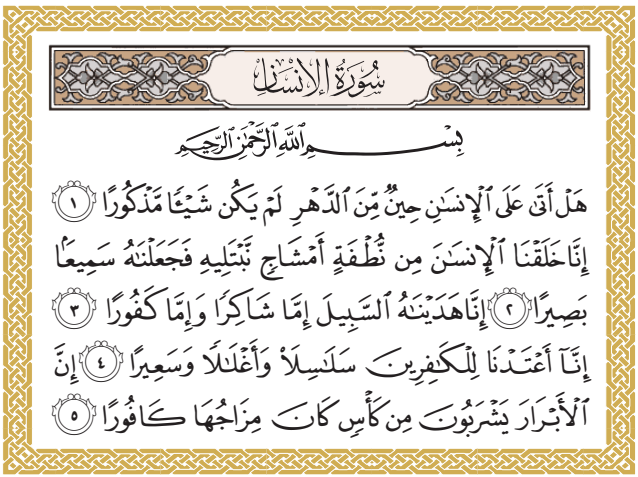

معاني الكلمات:

١ – هَلْ أَتَىٰ : قد أتى.

١ – عَلَى الْإِنسَانِ : آدم عليه السلام، وينطبق على كلِّ إنسان.

١ – حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ : وقتٌ من الزمانِ.

١ – لَمْ يَكُن شَيْئًا : لا نَباهَةَ، ولا رِفْعَةَ له؛ لأنه طِينٌ لَازِبٌ، وحَمَأٌ مَسْنُونٌ، وذلك قبل أن ينفخ اللهُ تعالى فيه الروحَ.

٢ – أَمْشَاجٍ : أَخلاطٍ مِن ماءِ المرأةِ وماءِ الرَّجُلِ.

٢ – نَبْتَلِيهِ : نختبره بالتكاليف بالأمر والنهي، عند تَأَهُّلِهِ لذلك بالبلوغ والعقل.

٣ – هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ : بَيَّنَّا له طريقَ الهُدى ببعثةِ الرُّسُل وإنزالِ الكُتُبِ.

٤ – أَعْتَدْنَا : هَيَّأْنَا.

٤ – سَلَاسِلَا : وَصْلَاتٍ مُترَابِطةٍ مِنَ الحَدِيدِ يُسْحَبُونَ بها في نارِ جهنمَ.

٤ – وَأَغْلَالًا : في أعناقهم أَطواقٌ مِن حَديدٍ.

٤ – وَسَعِيرًا : نارًا مُسَعَّرَةً مهيَّجَةً.

٥ – الْأَبْرَارَ : المُطِيعينَ لله ورسولِهِ، الصادِقِين في إيمانهم وأقوالهم وأحوالهم.

٥ – مِزَاجُهَا : ما تُمْزَجُ وتُخْلَطُ به.

من هداية الآيات

الآية: ١-٢	على الإنسانِ أنْ يُدرِك منْ أيِّ شيءٍ خُلِقَ، ويتدبَّرَ هذه الحالةَ؛ حتَّى لا يَغْتَرَّ بنفسه.
الآية: ٢-	بيانُ نَشأةِ الإنسانِ، وما تدُلُّ عليه هذه النشأةُ المُعْجِزَةُ من إفضالِ الله وإكرامِهِ لعباده.
الآية: ٢-	بيانُ أهميَّةِ حاسَّتَي السَّمعِ والبصر، وأنَّ وجودَ إحداهما - بالإضافة إلى العقل - شرطٌ للتكليف، ويسقط التكليفُ إذا فُقِدَ العقلُ، أو فُقِدَ السمعُ والبصرُ معًا.
الآية: ٣-	الحياةُ الدنيا ابتلاءٌ واختبار للإنسان؛ حيث أوضح اللهُ للناس طريقَ الخيرِ وطريقَ الشرِّ على ألسِنَة الرُّسُل والأنبياء والكتب السماوية.
الآية: ٣-	بيانُ أنَّ الإنسانُ مُختارٌ، وأمامَهُ طريقان؛ فلْيَسْلُكْ أيَّهما شاءَ، وكلُّ طريقٍ ينتهي به إلى غاية، فطريقُ الرُّشْدِ يوصِلُ إلى الجنة دارِ النعيم، وطريقُ الضلالِ والكفرِ يوصِلُ إلى دار الشقاء (الجحيم).
الآية: ٣-	إنَّ الإنسانَ قليلًا ما يشكُرُ ربَّهُ، بالرغم مِن كثرةِ النِّعَم عليه، وكثيرًا ما يكفُرُ نِعَمَ الله مع كثرة إحسانِ الله إليه؛ فوجبَ الحذرُ وشُكْرُ الله تعالى في كلِّ نعمةٍ وفي كلِّ مناسبة؛ شكرًا كما ينبغي لجلالِ وَجْهِهِ وعظيمِ سُلطانه.
الآية: ٥-	ينبغي الإكثارُ من فعلِ البِرِّ الذي هو الخير (منه الصدقاتُ المادية كالمال، والمعنويةُ كالابتسامة)؛ ولذا كان البَرُّ من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٨].

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ
ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ
مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا
﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا
﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

معاني الكلمات:

٦- يُفَجِّرُونَهَا: يُجْرُونَها ويُسيلُونَها حيثُ شاؤوا.

٧- يُوفُونَ بِالنَّذْرِ: يُتِمُّونَ ما ألزَموا أنفسَهُم به وفرضوه عليها طاعةً لله.

٧- شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا: مُمْتَدًّا طَويلًا مُنتشِرًا.

١٠- يَوْمًا عَبُوسًا: يومُ الحساب، ففيه تَكْلَحُ الوجوهُ من طُولِهِ وشِدَّتِهِ.

١٠- قَمْطَرِيرًا: شديدًا أو عصيبًا.

١١- فَوَقَىٰهُمْ: حَفِظَهُم وصَانَهُم.

١١- وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا: أعطاهم حُسْنًا وبهجةً في وجوههم، وفَرحًا في قلوبهم.

١٣- مُّتَّكِـِٔينَ: يستندُون على مَسْنَد.

١٣- عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ: على الأَسِرَّة المُحَجَّلَة، والأرائِك: جمعُ أريكة، وهي: مَقْعَدٌ مُريحٌ.

١٣- زَمْهَرِيرًا: بردًا شديدًا.

١٤- وَدَانِيَةً: قريبةً منهم ظلالُ أشجارِ الجنة.

١٤- وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا: بحيثُ ينالُ المؤمنُ من فاكهتها قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا.

١٥- وَأَكْوَابٍ: أقداح للشُّرب.

١٦- قَوَارِيرَا۠: وعاء من زجاج مَصقول.

١٦- قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا: مقدرة على قدر الشاربين بلا زيادة ولا نقص.

١٧- وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا: يشربون خمرًا غيرَ مُسْكِرٍ.

١٧- كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا: أي: تمزَجُ وتُخلَطُ بالزنجبيل.

١٨- عَيْنًا: ينبوع من الماء الجاري.

١٩- وَيَطُوفُ: يمشي حولَ.

١٩- مُّخَلَّدُونَ: الخدمة دائمة.

١٩- لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا: كاللؤلؤ في حُسْنِهم وجَمالهم وانتشارهم في الخدمة.

٢٠- وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ: إذا شاهدتَه في الجنة رأيتَ نعيمًا لا يُوصَف.

٢١- ثِيَابُ سُندُسٍ: حرير ناعم.

٢١- وَإِسْتَبْرَقٌ: ما غلُظَ من الحرير.

٢١- وَحُلُّوٓا۟: تُحَلِّيهم الملائكةُ بها.

٢١- شَرَابًا طَهُورًا: ما يُشرَب مِن ماءٍ منعِشٍ يطهِّرُ القلبَ.

٢٢- إِنَّ هَٰذَا: أي: النعيم الذي أنتم فيه.

٢٢- سَعْيُكُم: عملكم في الدنيا.

٢٢- مَّشْكُورًا: مَرْضيًّا مَقبولًا.

٢٣- نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا: حيثُ أُنزِلَ على مراحلَ وفي فترات متفرقة.

٢٣- فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ: عليكَ بالصبرِ عند إبلاغِ رِسالتِكَ إلى الناس.

٢٤- وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا: لا تَنْقَدْ إلى ما عُرِضَ عليك من الآثم (عُتبة بن ربيعة)، والكفور (الوليد بن المغيرة).

٢٤- وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا: صباحًا ومساءً، والمراد الصلاة وذكر الله في كلِّ وقت.

مـن هدايـة الآيـات

الآية: ٧- النَّذْرُ: هو ما يُوجِبُه المكَلَّفُ على نَفسِه في الطاعة بحيثُ لو لمْ يُوجبْه لم يلزمْهُ، وهو ليس مرغوبًا فيه، والأَولَى استبدالُ النذورِ بالصدقاتِ لو أمكَنَ، وله أحكام مفصَّلة في كتب الفقه.

الآية: ٧- وجوب الوفاء بالنذر: فمَنْ نذرَ شيئًا لله وجبَ أن يَفِيَ بنذره، إلا أنْ ينذُرَ معصيةً فلا يجوزُ له الوفاءُ بنذره فيها.

الآية: ٨- بيانُ سماحةِ الإسلامِ، حتَّى مع أعدائه، بدليل أَمْرِهِ بإطعامِ الأسيرِ ولَو كان مِن غيرِ جِنسيَّة القَومِ أو مِلَّتِهِم.

الآية: ٨- إن لفظَ اليتيم والمسكين هو لفظٌ عامٌّ، وليس خاصًّا بالمسلم، بدليل ذِكْرِ الأسيرِ معهم في هذه الآية، ومَنِ ادَّعَى غيرَ ذلك فعليه الدليلُ.

الآية:٨-٩ بيانُ أنَّ أعمالَ البِرِّ من أسبابِ تزكيةِ النفوسِ وصلاحها، وتطهيرِ القلوبِ وتَقويمِها، وهي مِنْ أخلاقِ الأبرار، وتساعد في نشر ثقافة حُبِّ الخير بين أفرادِ المجتمع.

الآية: ٨-٩ الترغيبُ في إطعام الطعامِ للمُحتاجين إليه مِنْ فقيرٍ ويتيمٍ وأسيرٍ، وهذا من الصدقات المحبَّبَة.

الآية: ٨-٩ مِن مظاهِرِ البِرِّ: التعاونُ في الإنفاق والإطعام والبذل والعطاء، ولا يقتصر على فئةٍ محدَّدة، بل يكون لكلِّ محتاجٍ مهما كان عمره أو حالته.

الآية: ٨-٩ وجوبُ إخلاصِ النيةِ وجَعْلِ كلِّ ما يقوم به العبدُ هوَ ابتغاءَ وجهِ الله ومَرضاتِهِ، دونَ انتظارِ الشكرِ مِن أحدٍ.

الآية: ٩- من الواجبِ شُكْرُ كلِّ مَنْ صنع لك معروفًا، وهو نوعٌ من العِوَض المعنويِّ له (لصانع المعروف) في الدنيا، ولو لم يسألْ ذلك.

الآية: ١٠- الخوفُ من الله عز وجل - الداعي لاجتناب معاصيه - من علاماتِ أهلِ البِرِّ، ومن أسباب دخول الجنة.

الآية: ١٠- يجبُ المسارعةُ في فعلِ الخيرات ودَرْءِ السيئاتِ والمعاصي قَدْرَ الإمكانِ؛ تَخَوُّفًا من يوم عظيمٍ عذابُهُ شديدٌ.

الآية: ١١- إن الجزاءَ كما يكونُ على العمل يكون أيضًا على النية، يقول الرسول ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» [أخرجه البخاري].

الآية: ١١-١٢ لَمَّا كان في الصبر مِنْ حَبسِ النفسِ عن الشهواتِ معَ التعَبِ والضيق، كان الجزاءُ من الله تعالى عليه بالجنة التي فيها السَّعَةُ واللباسُ الناعم والراحة في الجلوس والظلال الوفيرة والشراب المنعش؛ تحفيزًا من الله تعالى للمؤمن على طاعته في الدنيا، وإخبارًا له عن نتائج الاختبار للإنسان في الدنيا.

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ٢٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١

معاني الكلمات:

٢٦- وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ : صلاة المغرب والعشاء.

٢٦- وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا : تَهجَّدْ بالليل وصلِّ نافلة لك.

٢٧- يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ : يحبُّون الدنيا الذاهِبة، والمراد هنا توبيخ أهل مكة.

٢٧- وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا : نَسُوا يومَ القيامةِ وراءَهُم غيرَ مهتمِّينَ به.

٢٨- وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡ : قَوَّيْنا أعضاءَهم ومَفاصِلَهم.

٢٨- وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا : جعلْنا أمثالَهم في الخِلْقَةِ بَدلًا منهم بعدَ أنْ نهلِكَهم، (ولكنَّ اللهَ تعالى لم يَشَأْ ذلك).

٢٩- إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ : إن هذه السورةَ فيها عِظَةٌ للناس.

٢٩- ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا : سلك طريقًا إلى مرضاة الله بالإيمان والعمل الصالح.

٣٠- وَمَا تَشَآءُونَ : أي: إن مَشيئَتَكُم يعلمُها اللهُ تعالى، ومَشيئَتُه فوقَ مشيئتكم.

٣١- فِي رَحۡمَتِهِۦ : أي: في الجنة.

٣١- أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا : هيَّأَ لهم النارَ وعذابَها.

من هداية الآيات

الآية: ١٥-٦١ حرمة استعمال أواني الذهب والفضة؛ لقول الرسول ﷺ: «هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنيا، ولَنَا في الآخرة». [متفق عليه].

الآية: ١٧- حُرمَةُ الخمر، وفي الحديث: «مَنْ شرِبَ الخمرَ في الدُّنيا ثمَّ لَمْ يَتُبْ مِنها حُرِمَهَا في الآخرةِ». [رواه البخاري ومسلم].

الآية: ١٩- مشروعيَّة اتِّخاذِ خَدَمٍ صالحين يخدمون المرءَ في حياته، على أنْ يُعطيَهم حُقوقَهم، ويرحَمَهم، ويُحْسِنَ إليهم.

الآية: ٢١- حرمةُ لُبْسِ الحريرِ على الرجال، وإباحَتُهُ للنساء، (وكالحرير الذهبُ أيضًا)، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «لَا تَلْبَسُوا الحريرَ؛ فإنَّ مَنْ لَبِسَهُ في الدُّنْيا لَمْ يَلْبَسْهُ في الآخِرةِ». [متفق عليه].

الآية:٢٢- تقريرُ عقيدةِ البَعْثِ والجزاءِ، بِذِكْرِ صُوَرٍ منَ الجزاء الأُخْرَوِيِّ للعِبْرةِ لكلٍّ من الكفارِ والمؤمنين، كلٌّ على حَسْبِ عمله في الدنيا.

الآية: ٢٣- بيانُ أنَّ القرآنَ الكريمَ نزل على سيدنا محمد ﷺ وَحْيًا وتَنْزِيلًا مُفَصَّلًا، وعلى مراحل، على حسب الأحوالِ خلالَ ٢٣ سنةً.

الآية: ٢٤- الصبرُ مِنْ علاماتِ الرِّضا بالقضاء والقدر؛ فوجب الرضا بأحكامِ الله القَدَرِيَّة، وأنْ لا نَسْخَطَ ولا نيأس، وذِكْرُ الله يساعد على الثبات على الصبر، واعلَمْ أن الله سيُدبِّرُك أحسنَ تدبير.

الآية: ٢٤- حُرمةُ طاعةِ ذَوِي الإثم (الذين يعصون الله) وأهلِ الكفرِ في جميع أحوال الإنسان، فيجب الانتباهُ والحَذَرُ منهم.

الآية: ٢٤- على الدعاةِ الآمِرِينَ بالمعروف والنَّاهِين عن المنْكَرِ أنْ لا ييأسُوا من تكذيبِ الناس لهم، وأنْ لا يَكُفُّوا عن الدعوةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الذي يهدي مَن يشاء، ومتى شاء، وكيف شاء.

الآية: ٢٥- على المؤمن أنْ يستعين بالصلاة والذِّكْرِ والدعاءِ عند طلبِ العَونِ منَ الله تعالى، وفي كلِّ حال وحِينٍ.

سورة الإنسان

من كتاب نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-

مَرَّ رَكبٌ[1] مُسرِعٌ ببعض المقابر، فقال أحدُهم لزميله: أتدري ما تقول هذه القبورُ عنَّا؟

فقال: ماذا تقول؟

أجاب: تقول: كَمَا أنتم كذا كُنَّا، كَمَا نحنُ تكونون.

وقد تساءلتُ أنا عن نفسي: ماذا كنتُ قبلَ مائةِ عامٍ؟ وماذا كان أغلبُ الجيلِ الذي أعيش فيه؟ ولمْ أجِدْ ردًّا أَصْدَقَ من قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾.

إنَّنا لمْ نكُنْ شيئًا، ثم خَلَقَنا اللهُ نسمعُ ونُبْصِر، ثم اسْتَعادَنا[2] إليه وَخَلَتِ[3] الأرضُ مِنَّا! لكنْ على أيِّ نَحْوٍ نعودُ؟ [يريد في الآخرة].

قال تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾.

والمُلاحَظ في هذه السورة أنها اختصرَتْ في وصْفِ العذاب الذي يَلْقَاهُ الكفَّارُ، على حِينِ أفاضَتْ[4] في وصفِ النعيمِ والعَظَمَةِ التي تنتظِرُ المؤمنين.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾.

١- ركب: مجموعة على مركبة.

٢- استعادنا إليه: استرجعنا إليه.

٣- خلت: أي صارت فارغة.

٤- أفاضت: توسعت بالشرح.

ثم قيل لهم - تذكيرًا بما مضَى في الدنيا -: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

ونِصفُ السورةِ الأخير يتحدَّث عن الرسالة الخاتِمَةِ، رسالةِ سيدِنا محمدٍ ﷺ (الإسلام) ودورِها في صُنْعِ الحياة العامَّة؛ ذلك أنَّ أثَرَ البيئة[1] في الأخلاق خطيرٌ، وتَأَثُّرَنا بها لا يمكِنُ إنكارُه.

فإذا استطاعَ الرسولُ أنْ يغيِّر اتجاهَ مجتمَع، وأنْ يملأَ بالوحي[2] قلوبًا كانت فارغة، فقد صنعَ أُمَّةَ المسلمين تَمْحُو وتُثْبِت[3]، وتَهدي الناسَ إلى صراطٍ مستقيم، ومن هنا قيل له: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾.

والتذكيرُ المستمِرُّ بالله يتناول أولَ النهارِ وآخرَهُ، ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾، كما يتناول سبحانه الليلَ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

ووَصَفَ القرآنُ الكريمُ طباعَ البَشَرِ على عهدِ الرِّسالةِ[4] وقَبْلَهُ وبَعْدَه فقال: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾، يقصد الآخرة.

والحقُّ أنَّ الناسَ يكادُون يفقِدُون رُشدَهم[5] مع سَكْرَةِ[6] الحياة ومَطالِبِها ولَذَّاتِها. وفي عَصْرِنا الحاضرِ يكادُ ذِكْرُ الآخرةِ يكونُ

١- البيئة: مجموعة من العادات والتقاليد والأفكار.

٢- الوحي: أوامرُ اللهِ المرسلة عن طريق جبريل.

٣- تمحو وتثبت: تُذْهِب الأَثَرَ السابق، وتُؤَكِّدُ الأمر الجديد.

٤- عهد الرسالة: خلال وقت وجود الرسول لنشر دعوة الإسلام.

٥- رشدهم: طريق الرشاد والحق.

٦- سكرة: غفلة وضلال.

مَحظورًا[١]، كما أنَّ ذِكْرَ الموتِ وَعظٌ بارد[٢]!!

ولستُ أُحِبُّ النُّواحَ[٣] والتشاؤمَ والنَّعِيقَ[٤]، ولكنِّي أكرَهُ الغَفْلَةَ[٥]، وهزائِمَ الفِكْرِ الإنسانيِّ أمام الهَوَى الجامِحِ[٦].

أُريدُ أنْ يعرف الناسُ مِنْ أين جاؤوا، وإلى أين يعودون ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾، واللهُ يزيدُ الذين اهتدَوا هُدًى، ويُزِيحُ[٧] من أمامِهِم العَوائِقَ.

أمَّا النَّاسُونَ للهِ، العَمُونَ[٨] عن آياته، فهو يَذَرُهم[٩] في طغيانهم[١٠] ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

١- محظورا: ممنوعًا.

٢- وعظ بارد: نصح وتذكير ضعيف وفاتر.

٣- النواح: الصياح بحزن.

٤- النعيق: صوت الصياح المهيِّج للفتنة.

٥- الغفلة: الغَيبة عن الشيء نتيجةَ الإهمال.

٦- الهوى الجامح: مَيْلُ النفس المُندفِع إلى ما تهواه في ما يخالف الشَّرْعَ.

٧- يزيح: يكشف ويُبْعِد.

٨- العَمُون: فاقِدُو البصيرةِ والتفكيرِ والرؤية، عَدِيمُو التمييز.

٩- يذرهم: يتركهم.

١٠- طغيانهم: ظلمهم الشديد، وتكبُّرهم، وقَهْرُهم.

من خواطر ومحاضرات الدكتور محمد راتب النابلسي
-نقلناه بتصرف- في تفسير سورة الإنسان

إذا تَصَفَّحْتَ كتابًا قبلَ تاريخِ ميلادِك، ألَمْ يخطُرْ في بالك أنَّه في أثناء طَبْعِ هذا الكتابِ لم يكُنْ لكَ وُجودٌ ولا مكان ولا حجم ولا هويَّة؟ هذا معنى قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾.

حكمةُ خَلْقِ الإنسان:

مَنْ أنْعمَ عليك بِنِعْمة الإيجاد؟ اللهُ جلَّ جلاله، وُجِدْتَ بعد أنْ لم تكنْ! هذه نِعْمة. ألَمْ تسألْ نفسَك هذا السؤال: لماذا أوجَدني اللهُ عز وجل؟ لا يليقُ باللهِ ولا بِكَماله ولا بعَظَمَته ولا بِقُدرته أنْ يخلُقَ مَخلوقًا ليعذِّبه، البعضُ يقولُ كلامًا عجيبًا! يقولون: اللهُ تعالى خَلَقَنا للمعاناة أوللعذاب! مَنْ قال لك هذا؟ القرآنُ يردُّ على هذا بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود:١١٩].

لقد خلقهم اللهُ تعالى ليرحَمَهم، ولجنةٍ عَرضُها السماواتُ والأرضُ، وخلقَهُم ليُسعِدهم، وليجعلَ لهم من نِعَمِ الدنيا متصلةً بنِعَمِ الآخرة.

للهِ المثل الأعلى... لو أنَّ السيارةَ مصمَّمةٌ أَعْلى تصميمٍ لتكونَ لخدمتك ولتَنقُلَكَ إلى مكانٍ جميلٍ، فلو أنَّ إنسانًا قادها وهو سَكران، قد تتدهور وتنكسِر أضْلاعُه، فَمنِ المسؤولُ؟ هو الذي شرب الخمرَ وقادها بِطَريقةٍ مَغلوطة، والأصل أنَّ هذه المركبة صُنِعَت كي تنقلك

إلى أيِّ مكانٍ تشاء، وكي ترتاح باستِعمالها، وكي تسعَد بها، صُمِّمَت لإسعادِك لا لتدميرك، أما لو قُدْتَها دون وعي وكان هناك حادثٌ مؤلمٌ فأنت السَّبب... فربُّنا عز وجل خلقَنَا ليُسعِدنا وليرحَمَنا، ولينصُرَنا ويطمئِنَنَا، خَلَقَنا لجنةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ، لجنة يدوم نعيمُها، لذلك أوَّل سؤال: (ألَمْ يَمُرَّ وقتٌ في الأرض لم تكُنْ أنت موجودًا؟).

ولَو رجَعنا إلى عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، فهُل كُنَّا موجودين؟ لم نكُنْ إطلاقًا، وكذا عهدُ الصحابة والتابعين والأمويين والعباسيين إلى عهد الدُّوَلِ المُتَتَابِعة، في تلك الأزمنة لم نَكُنْ موجودين، اللهُ سبحانه خلقكَ ثم أوجدك في هذا العصر، فهذه نِعْمَةٌ أُولى.

النِّعْمة الثانِيَة هي نِعْمة الإمْداد، أَمَدَّك بالهواء، والهواء ليس له فاتورة، ولو كان كذلك لكانت هذه مشكلةً، تَدْفَعُ أو نَقطعُ عليك التنفُّسَ!! شيء غيرُ مَعْقولٍ، إذَن، الهواء مباحٌ للجميع، وكذا الماء، والطعام... وأمَدَّك بِزَوْجة تأنَسُ بها من جِنْسِك وطبيعتك ونفْسِك، تُحِبُّ كما تُحِبُّ، وتَكرَه كما تَكرَه، وتَرقَى كما تَرْقَى، جَعَلَها مُتعَةً لك، وأنْجَب لك منها أولادًا، يملؤون لكَ البيْتَ فرْحَةً، فإذا تقدَّمَتْ بك السِنُّ كانوا لك عونًا، فهو تعالى أَمدَّكَ بكلِّ شيء، وأثناءَ إمدادِهِ لك بهذه النِّعَمِ دَلَّك عليه، بَيَّن لك طريقَ الهُدَى والرَّشاد. هذه الكِليةُ الصغيرةُ في جسمك تعمل بِصَمْت، الدمُ يُصَفَّى فيها في اليوم خمْس مرات، أما الكلية الصِّناعِيَّة فيقضي المريضُ تحتها ساعاتٍ ويده مَمْدودة وهو مُتَعطِّل، كُلُّ هذا من أجل العيش بسلام لثلاثة أيام، وكذا الكَبِدُ؛ لولاه لما عِشتَ ثلاث ساعات، وكذا القلب، كل شيء فيك ثمين فاحمد الله، فزَرْعُ الكِلية يكلِّف أموالًا طائلة، فإذا كان الإنسانُ من الشاكرين قَيَّدَ (أي أثبت) هذه النِّعَم بالشُّكْر، وإن لم يَشْكُرْها

ضَيَّعَها، وأَحَدُ أنواعِ شُكْرِ النِّعَمِ أن تستَعْمِلها في مَرْضاة الله، لا أن تنظر بِهذه العَيْن إلى ما حَرَّم اللهُ، وكذا السَّمْعُ والنطْقُ والبَطْشُ باليد والرِّجل... فالله تعالى قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾؛ فهذِهِ النُّطْفةُ تُلَقِّح البُوَيْضةَ، وهناك ثلاثة وعشرون موروثًا في الحيوان المَنَوِيِّ، وكذا البويضة، أصْبَحَ العددُ ستًّا وأرْبعين، أمَّا أيُّ خلية أُخرى فعليها ستٌّ وأربعون موروثًا؛ لذلك الاستنساخُ مُشكلتُه أن نأخذ خلية عليها سِتٌّ وأربعون وليس ثلاث وعِشْرون موروثًا، فهذا الذي يأتي من الاستنساخ هو أخٌ لأبيه أو أُخْتٌ لأمِّها، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أما الإنسان الطبيعي فقد خلقه الله تعالى من نطفة أمشاج، أي أن الحوين والبويضة تفاعَلَا وكوَّنا هذا الجنين، وهذا الجنين فيه صِفات الأب والأمّ، وفيه أقْوى الصفَتَين، ويُتَلافى فيه أضْعَفُ الصفتين، فهذه الآية وَحْدَها تنفي وتحرم الاسْتِنساخ.

ومعنى (نبتليه): نَمتَحِنُه سَمِيعًا كي يسْمَعَ الحقَّ، وبصيرًا لِيَرى الآيات، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

أَحَدُ أسبابِ دخولِ النار للكفار والمشركين والملحدين أنهم لم يسمعوا ولم يعقلوا ولم يتفكروا ولم يتأملوا، وهذا الصنف من الناس قال عنه تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل:١٢].

لفظة (على) إذا أُضِيفَتْ إلى ذاتِ اللهِ عز وجل (كما في آية الليل: ١٢) تُفيد (الإلْزام الذاتي)، أي: إن اللهَ تعالى ألزم ذاتَهُ العَلِيَّةَ بهدايتك إلى الطريقِ المُوصِلِ إلى الحَقّ.

إذن، فالهُدَى مِنَ الله، هوَ الذي يَهْدِي، فهُوَ تعالى هَدَاكَ بالعَقْلِ والفِطْرة، وهداك بالقرآن والنبيِّ العَدْنانِ سيدِنا محمدٍ ﷺ، ومن ثَمَّ الدُّعاةُ، فالكون يُعرَفُ بالله، وعَقْلُك يَصِلُ بك إلى الله، وفِطْرَتُك تَدُلُّك على الله، والقرآن والنبي عليه الصلاة والسلام يدلان على الله تعالى، وأفعال الله تدُلُّ عليه، والعلماء من بعد الأنبياء يَدُلُّون على الله.

والسبيلُ: الطريقُ المُوصِلُ إلى السعادة في الدنيا والآخرة، والموصِلُ إلى السَّلام، الموصِلُ إلى الدُّنيا كما أرادها اللهُ وإلى النجاة في الآخِرة، أما الذين كفروا بالله تعالى وانحرفوا وضَلُّوا وتكبَّروا فقد قال تعالى لهم: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾، (أي لهم في الآخرة عذاب شديد) وقال تعالى عنهم في أواخر السورة أيضًا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾، (أي يؤثرون الدنيا على الآخرة) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾.

نحن في بَحْبوحَة الحياةِ، والقلبُ يعمل، الصِّحةُ طَيِّبَةٌ، فما علينا إلا التوبةُ والصُّلْحُ مع الله تعالى، وما علينا إلَّا أنْ نُحاسِبَ أنفُسَنا حِسابًا دقيقًا، وأنْ نتوبَ قبلَ أنْ لا نقدِرَ على التوبة، وأن نُؤَدِّي ما علينا من حُقوقٍ الله تعالى وللعباد قبلَ أنْ لا نَجِدَ، فما دُمْتَ حيًّا فكُلُّ شيءٍ

مَحْلـولٌ؛ لأنَّ ربَّنا عـز وجل مَنَحَنا نِعْمَـةَ (الإيجاد)، وأوْجَدَنا لِيُسْـعِدنا ويرْحَمَنـا في الدنيا والآخـرة، ووعدنا بأنه مَنْ كان بـارًّا صادقًا في اتباع تعاليـم الله فإن لـه الجنةَ الأبديَّةَ في الآخـرة يَنْعَمُ فيها بما يشـاء، أمَّا إذا أخطأنا وعصينا فقدْ شَـقِينا في الدنيا، وفي الآخرة سيكون حسابُنا عسيرًا وشـاقًّا، وقد يكون نارَ جهنمَ والعياذُ بالله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشـورى:٣٠]، وفي آية أخرى قـال تعالـى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقـرة:٥٧]، بعد هـذا الإكرام والرحمة مِـنَ الله تعالى إلينـا، ما علينا إلا أنْ نسْـتجيب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفـال:٢٤]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠].

وهذا الشَّـرابُ المذكورُ في الآية السـابقة، وهـذا النعيم، يكون في الجنة، ويصفها الله تعالى لنا فيقول:

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾، قـال علمـاءُ التفسـير: يشرب بها، أي: يشرب منها عبادُ الله الصالحون، الذين صلُحَتْ نفوسُهم في الدنيا فاسـتحقُّوا جنةَ ربِّهم، وهذه المياه العَذبَةُ الباردةُ المنعشةُ تدور معهم أينما داروا ومشوا في الجنة...

يقول لك أحدهم في موسم الحج في الدنيا: الحجاج عندما ينتقلون

مـن مكة إلى منـى، المياه كلُّها تنتقل معهم، وصلـوا إلى عرفات والمياه تنتقل معهم، يعني هناك تركيبات دقيقة جدًّا، بحيث تنتقل المياه التي هم بحاجة إليهـا معهم من مكان إلى مكان، إذا كان هذا في الدنيا، فما بالك فـي الآخرة، هذا حـال أهل الجنة، يعني أينما ذهبـت، عين الماء الينبوع الجاري العذب السلسبيل إلى جانبك.

الوفاء بما أوجبه الله عليك:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ...﴿٧﴾﴾، هذه الآية من أدقِّ الآيات.

النذر: هو ما أوجبه الإنسـان على نفسـه، دونَ إلزام من الله تعالى، فـإذا كان مُوفِيًـا بما أوجبه على نفسـه، فَلَأَنْ يكون موفِيًـا بما أوجبه الله عليه من باب أَولَى، فالله أوجب علينا الاسـتقامةَ، أوجب علينا الصدقَ، أوجب علينا الأمانةَ، أوجب علينا العِفَّةَ، أوجب علينا الإخلاصَ، أوجب علينا أن نصلي، أن نصوم، أن نحج، أن نعتمر، إلى ما هناك من العبادات والأخـلاق والأعمال الصالحة، يعني أن هذا المؤمـنَ صفَتُهُ أنه يُوفِي ما عاهد الله عليه.

الآنَ أكثرُ الحُجَّاج أثناءَ الطوافِ إذا حاذَوا الحجرَ الأسعَدَ أو الأسود يَقِفُونَ أمامَه، ويشـيرون له بأيديهم ويقولون: باسم الله، الله أكبر، اللهم إيمانًـا بك، وتصديقًا بكتابك، واتباعًا لسُـنَّة نبيِّك، وعهدًا على طاعتك، ثم يعودون إلى بلدهم.. والحاجُّ الحقيقي هذا العهد ينبغي ألا يغيب عن ذهنه لحظة واحدةً، أنتَ عاهدتَ اللهَ تعالى على الطاعة له.

إن العهدَ كان مسـؤولًا، فهؤلاء المؤمنون الذين اسـتحقوا جنة الله عز وجل، أما الفاسـقون الخارجون عن تعاليم الله فلا عهد لهم؛ لقوله

تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٠٢].

لَأَنْ يسقطَ الإنسانُ من السماء إلى الأرض فتتحطَّمَ أعضاؤه، أَهوَنُ من أن يسقط مِنْ عينِ اللهِ، قد تكون فقيرًا، والفقرُ ليس وَصْمَةَ عارٍ بالإنسان أبدًا، قد تكون مريضًا، فالفقر ليس بمشكلة، والمرض أيضًا ليس بمشكلة، لكنْ أنْ تسقط من عين الله هذه هي المشكلة، أنْ تخونَ أمانَتَك، ألَّا توفي بما عاهدت اللهَ عليه، ألَّا تكون عند عهد الله عز وجل بطاعته، فلذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣]. بنو إسرائيل ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:٩٣]، أما المؤمنون الصادقون: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

محاسبة الإنسان يوم القيامة:

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾

هذا اليومُ هو يوم الحساب في الآخرة، والشرُّ المُستطِير، أي: المنتشِرُ. يوجد مشكلاتٌ في الحياة الدنيا ينشأ عنها مشكلة متفجِّرةٌ في الآخرة، هناك مشكلات محدودةٌ في الدنيا، تُحاطُ، تُطوَّقُ، تُحدَّد وتُحَلُّ، أما في يوم القيامة فهذا اليوم يحاسَبُ الإنسانُ فيه عن كلِّ شيء، وتُراجَعُ كلُّ الحساباتِ، وكلُّ القوائم، يوم عصيب[1] على البشر، لقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٢) ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:٩-١٠].

١- عصيب: شديد الفزع والهول وشديد الحر.

٢- عسير: صعب جدًا.

جَوهَرُ الدِّينِ معرفةُ الحلالِ والحرام:

قال لي أخٌ كريمٌ: إنه دخل مزادًا عَلَنيًّا بطريقةٍ ما لشراء موادَّ، وأَخْذِها بثُلُثَي ثَمَنِها، بالاتفاق مع أشخاص آخرين، رفعوا السعرَ قليلًا قليلًا، هذا الأخ قال لي: ثم عرفتُ أن أصحابَ هذا المزاد بعضُهُم أيتامٌ، فكيف أواجِهُ اللهَ يومَ القيامة؟ قال لي: بماذا تنصحني؟ قلت له: إمَّا أن تنسحب، وإما أن تُعطيَ أصحابَه الثمنَ الكامل، ولا تعبَأْ بهذه المزاوَدَةِ، وهذا الذي فَعَلَهُ. أحيانًا يكون القانون معك مائة بالمائة، لكنْ في القبر وما بعده لا يوجد قانون مدني، في القبر يوجَدُ شرْعٌ، القضية تُحَلُّ معك هكذا في الدنيا، أما في الآخرة فهناك الحساب المفصل المستطير الممتد إلى أمد لا يعلمه إلا الله تعالى!

قيل لأحد رُعاةِ الغنم: بِعْني هذه الشاةَ وخُذْ ثمنَها؟ قال: هي ليست لي، قال له: قل لصاحبها إنها ماتت، وخذ ثمنها، قال له: والله إنني لفي أشدِّ الحاجةِ إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئبُ لصدَّقَني؛ فإني عندَه صادقٌ أمينٌ، ولكنْ أين الله؟ هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين.

لو قرأتَ ألفَ كتابٍ، وسمعتَ المئاتِ من المحاضَرات، ولديك ثقافة إسلامية واسعة، وعندك وعندك..، وأكلتَ درهمًا من حرامٍ فأنت لا تعرف شيئًا عن الحلال والحرام، واللهِ لا أُبالِغ، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

في الصَّوم: رُبَّ صائمٍ ليس له من صيامه إلا الجوعُ والعطشُ.

في الصلاة: مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صلاتُه عن الفحشاءِ[1] والمُنكَر لم يَزْدَدْ من اللهِ إلا بُعْدًا.

الحج: إذا حج إنسانٌ بمالٍ حرام وقال: لبيك اللَّهمَّ لبَّيكَ، يناديه مُنَادٍ من السماء: لا لَبَّيكَ ولا سَعْدَيْكَ، وحَجُّكَ مردودٌ عليك.

(أي لا إجابة لطلبك ولا إسعاد لك وحجك غير مقبول لك)

هذه العبادات ترقَى بها إلى الله تعالى إذا كان بيتك إسلاميًّا، وعملُكَ مستقيمًا، وخُلُقُكَ قويمًا والله أعلم.

من أفضل الأعمال الصالحة:

- الوفاءُ بالنذر كما أَسْلَفْنا.

- وإطعامُ الطعام، لقوله تعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾.

النبيُّ الكريمُ سئِل: أيُّ الإسلامِ أفضلُ؟ قال: «إِطْعَامُ الطعامِ»؛ لأنه يؤلِّفُ القلوبَ، ويجمَعُ النفوسَ، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام كان لا يجيب المتبارِيَيْن (أي الذين يتسابقون الاحتفالات المبالغ فيها) في الولائم، فإذا كانت الوليمةُ من أجل أنْ تفتخر، أن تعلو بها على الناس، هذه وليمةٌ أُرِيدَ بها الشيطانُ.

---

١ – الفحشاء: هو كل مستقبح من القول أو الفعل، والمنكر هو كل ما تحكم العقول الصحيحة والشرع بقبحه أو تحريمه أو كراهته...

والعلماء قالوا: إن للحب في هذه الآية معنيين:

يحبُّون الطعام، وهم محتاجون إليه، والوضع عصيب جدًّا، فآثروا به الفقيرَ، هذا معنى.

أو الإطعام بسبب حبهم لله عز وجل وهذا معنى آخر.

﴿مِسْكِينًا﴾ فقيرًا أو عاجزًا عن العمل، ﴿وَيَتِيمًا﴾ الصغير الذي ليس له أبٌ، ولا يمكِنُه أن يكسب المالَ، ﴿وَأَسِيرًا﴾ الذي أُسِر ولو كان مُشرِكًا، ويُعَدُّ إطعامُهُ من الصدقات لأنَّ الأسير المشرك لا يعطَى من الزكاة؛ لأنَّ الزكاة تؤخَذُ من أغنياء المسلمين وتُرَدُّ (تعطى) على فقرائهم، أما الصدقة فيمكن أن ينفَق منها لغير المسلمين.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ... ﴿٩﴾﴾.

الإخلاصُ ينفَعُ معه قليلُ العملِ و كثيرُهُ، أما مع عدمِ الإخلاصِ فلا ينفع قليلُ العملِ ولا كثيرُهُ، الإخلاص لا يعلَمُه إلا اللهُ، حتى الْمَلَك الذي على كتفك والموكل بك لا يعلم إخلاصَك، ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: ابتغاءَ مرضاتِهِ.

﴿...لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾، أي: لا يريد اللهُ مِنَّا استحسانًا ولا مدحًا ولا ثناء ولا شكرًا ولا أيَّ شيءٍ من هذا القبيل، إنما العملُ عندهم لوجه الله تعالى.

إنَّ الإخلاصَ ثمنُهُ الجنة، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢].

الله سبحانه وتعالى يعلَمُ ما تعمل، وسيُعوِّض عليك ما أنفقتَ

أضعافًا مُضاعفةً، مستغنيًا غنيًّا عن أنْ يقولَ الناسُ عنك: إنك مُحْسِنٌ كبيرٌ؛ لأنك بذلك تقترب إلى الإخلاص، والإنسانُ إذا نازَعَتْهُ نفسُهُ (دفعته إلى الشك) حولَ ما إذا كان مُخلِصًا أو غيرَ مخلِصٍ فَلْيَكْتُمْ عملَهُ الطيبَ عن الناس، لِيُصَلِّ في جوف الليل دونَ أن يقول لأحدٍ، لِيَدْفَعْ صدقةً لا تعلم شمالُهُ ما أنفقَتْ يمينُهُ، بهذا ينتصر على الشيطان، إذا وسوس لك: أنت تريد مديحًا أو ثناءً، رُدَّ عليه بهذه الآية: ﴿... لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾.

المؤمنون كثيرون، لهم أعمالٌ كالجبال، لا يعلمُها أحدٌ، هي بينَهم وبين اللهِ عز وجلَّ، وكلَّما كانتْ الصِّلةُ عامرةً فيما بينَكَ وبينَ الله استغنيت عن لَذَّة المديح، فالمديحُ مرضٌ نفسيٌّ يُضعِف الإخلاصَ، فثَناؤُهم عليكَ هو جزاؤُكَ من هذا العمل في هذه الدنيا، أما المؤمن فهو يبتغي وجهَ اللهِ تعالى.

سيدُنا الصِّدِّيقُ رَضِي اللَّه عَنْه له أعمالٌ عظيمةٌ لا يعلم بها أحدٌ، له جيرانٌ ضِعافٌ، فكان يحلب لهم الشياهَ، فلما صار خليفةَ المسلمين دخل الحزنُ على هؤلاء الجيران، ولكنْ في صبيحة اليوم الأول عندما تسلم منصِبَ الخلافةِ، طرق بابَ أحدِ الجيران، فقالت الأم لابنتها: مَنِ الطارقُ؟ قالت: جاء حالبُ الشاةِ يا أُمَّاهُ، وهو خليفةُ المسلمين، وفي قمة المجتمعِ الإسلامي، يحلب الشياه لجيرانه الضعاف، المؤمنُ الصادقُ له أعمال لا يعلمها إلا الله، له أعمال جليلة بينه وبين الله، ولا يستطيع الشيطانُ أن يقول له: إنما تفعل هذا رياءَ الناسِ (أي ليروك) أبدًا.

وقال العلماءُ: يُشْرَعُ إعلانُ الأعمالِ الصالحةِ إذا كان ذلك يُشجِّعُ الآخرين على القيام بمثل هذه الأعمال الصالحة، لحاجة المجتمع

والوطن إليها، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٥]، وقال سبحانه: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٧١]. (أي إن صدقة الخفاء أعظم وأفضل).

وصف يوم القيامة:

إنَّ يومَ القيامةِ يومٌ مخيفٌ، لقوله تعالى:

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

يوم تعبِسُ فيه الوُجوهُ، وقمطرير: يعني طويلٌ. أحيانًا الموقِفُ الحرِجُ لا يطول، وأما إذا استمرَّ أيامًا وأسابيع، وشهورًا وسنواتٍ فهذا معنى (قمطرير).

يوم الحِساب، يوم المحاسبة، يوم الجزاء، يوم التحقيق، يوم الإدانة... فإذا كان في الدنيا لا يُحْتَمَلُ فما بالك بالآخرة!...

إنسانٌ خارج عن القانون، أُلقي القبضُ عليه، دخل في دوامة التحقيقِ، السؤال والجواب، عرفَ ما ينتظرُهُ، إما شنقًا، وإما مُؤبَّدًا مع الأشغال الشاقةِ، هذا يوم صعب جدًّا، صعب مع إنسان آخر، فكيف ذلك في الآخرة مع الواحد الديَّانِ؟!

هناك مَنْ يدَّعي أنَّ الإنسانَ يكفيه أنْ يكونَ ضميرُهُ حيًّا، هذا الكلامُ ليس له معنًى؛ فلَنْ تستقيمَ على أمر اللهِ إلا إذا عرفتَ أنَّ كلَّ حركةٍ وسَكنةٍ (أي من غير حركة) ستُحاسَبُ عليها يومَ القيامةِ، وسوف يُحقَّقُ معك، وسوف تُعرَض أعمالُك عليك، صغيرُها وكبيرُها، جليلُها وحقيرُها.

محاسبة الله تعالى للإنسان:

حينما تعلَمُ علمَ اليقينِ أنَّ اللهَ يعلمُ، وسيحاسِبُ، وسيعاقِبُ، هذه ثلاثُ كلماتٍ، فلَوْ أيقَنَ الإنسانُ يقينًا كيقينِهِ بوُجودِهِ أنَّ اللهَ يعلم كلَّ حركاتِهِ وسَكَناتِهِ، كلَّ نواياهُ، كلَّ مقاصِدِهِ، كلَّ بواعِثِه (أسباب فعله، أو دواعي عمله)، كلَّ أهدافِهِ، وما أخفاه على الناس - لأن الله لا تخفى عليه خافية -، وأنه سيحاسِبُ، وأنه سيعاقِبُ، وأن الحسابَ عسيرٌ، وأن العقابَ طويلٌ، وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ انطلاقًا من حُبِّ الإنسان لِذَاتِهِ، ومن حُبِّه لوُجودِه، وسلامةِ وجودِه، وكمالِ وجوده، واستمرارِ وجوده (وحسن جزائه في الآخرة) لن يعصِيَ اللهَ عز وجل؛ فلذلك هؤلاء المؤمنون لماذا آمنوا؟ لماذا استقاموا؟ لماذا أَدَّوا ما عليهم من واجبات؟ لماذا أعطَوا ما في ذِمَّتهم من حقوقٍ؟ لماذا عبدوا اللهَ عبادةً مُتقَنَةً؟ لماذا خافوا أن يأكلوا درهمًا حرامًا؟ لماذا خافوا أن ينظروا نظرَةً إلى غيرهم لا تجوز؟... لأنهم خافوا من ربِّهم يومَ الحساب.

الإيمان باليوم الآخر:

إذَن، فالقضيةُ قضيةُ إيمانٍ باليوم الآخِرِ، إذا آمنَّا باليوم الآخر حُلَّتْ كُلُّ مشكلاتنا، انطلاقًا من حُبِّنا لِذَواتِنا -أنفسنا-، فلا نعصي اللهَ عزَّ وجلَّ، إذا آمنتَ أن هذا الذي أمامَكَ لو كذبتَ عليه، أو احْتَلْتَ عليه، أو ابتزَزْتَ[1] مالَه، أو أرعبْتَه، أو أَخَفْتَه لتأخذَ ما في يدِهِ، فإنَّ اللهَ سيحاسبك عن ذلك حسابًا عسيرًا، عندها لا يمكن أن تفعل ذلك، أنت لاحظ نفسَك مع شُرطيٍّ يرتدي بذلة حكومية، قدْ تكون أقوَى منه جسدًا، وقد تستطيع

١- ابتزَزْتَ: هددته بفعل شيء ما إذا لم يفعل ما تريده.

أن تفعل به ما تشاء في مكان ما، لكن ستُحاسَبُ حساب مَنْ هم أعلى منه، كيف سيحاسبونك؟ كيف سيقتَصُّون منك (أي يعاقبونك جراء فعلك)؟ هذا هو الذي يحمِلُ مُعْظَمَ الناسِ على الاستقامة، الإيمانُ بيوم الحساب في اليوم الآخر.

علمُ اللهِ، و حسابُهُ، وعقابُهُ:

هذا الذي يعلم أنَّ اللهَ يعلم ويحاسِبُ ويعاقِبُه لا يظلِمُ زوجَتَه؛ خوفًا من الله، لا يظلمُ أولادَه؛ خوفًا من الله، لا يظلمهم في الميراث، لا يظلم جيرانَهُ وعُمَّالَه ومُوَظَّفِيه، لا يغتصب (أي يأخذ ما ليس له) شبرًا مِنْ أرضٍ؟ لا يغتصب حقوقَ الآخَرين؟ كلُّ هؤلاء العباد عبادُ اللهِ، واللهُ معك، ويعلم ما تَفْعَلُ معه.

الطبيب قد يُوهِمُ المريضَ أنه يحتاج عمليةً، اللهُ يعلم أن هذا الكلامَ غيرُ صحيحٍ، المحامي يُوهِمُ المُوَكِّلَ أنَّ دَعواهُ مُحِقَّةٌ أو رابِحَةٌ، وهو يعلم علمَ اليقين أنها خاسرة أو باطلة، المعلِّمُ يُوهِمُ الطالبَ أنه سينجح من أجل أنْ يأخذ منه مبلغًا على كلِّ درسٍ... هذا الذي يفعل شيئًا لا يرضي اللهَ، كيف يتوازن (يُثَبِتُ نفسه) لو علم أن الله يعلَمُ؟ وكيف يتوازن لو علم أن الله سيحاسِبُ؟

موظفٌ له مديرٌ قويٌّ جدًّا وقاسٍ جدًّا ونظاميٌّ جدًّا، وله عيون (أي مراقبون لو تأخر في العمل)، كيف يجيبه لو سأله؟ كيف سيخرج من سخطه لو حاسبه؟ بماذا يُبَرِّر عملَه لو عرَفَ ذلك؟ هوَ منضبِطٌ مع إنسان أقوَى منه، مع أنه لا يحبُّه، وليس له فضل عليه، ولم يمنحه الحياة، ولم يمنحه شيئًا، ولكنه ينضبط؛ لأنه لا يستطيع أحدٌ أن يتفلَّت من حِسابه،

ولا من عقابه، فما بالك بالعقاب من رب العباد إلى أبد الآبدين! الله عز وجل يقول: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [فصلت:٤٠].

ضَبْطُ الناسِ عن طريق القوانين:

ما الذي يضبط الناسَ في حياتهم المدنيَّة؟ القوانين... ومع القوانين ما يسميه علماءُ القانون (المؤَيِّدات القانونية)، فقانون السَّير مثلًا لا قيمة له إطلاقًا ما لم يُدعَمْ بمؤيِّدات، من يقود هذه المركبةَ بلا إجازةٍ يحاسَبُ، يسجَنُ، يدفع غرامةً كبيرة، تُصادَر المركبةُ، لا يوجد قانون في الأرض إلا له مؤيِّداتٌ قانونية، المؤيِّدُ هو الذي يحمِلُ الناسَ على اتِّباع القانون، مَنِ الذي يدفع الناسَ إلى دفع الضريبة؟ لأنها تتضاعف ثلاثة أضعاف إن لم تدفعها في وقتها، ما الذي يمنع الناس ألا ينقلوا بضاعةً غيرَ نظاميةٍ؟ نظامُ الجمارك تدفع ثمانيةَ أمثالِ الثمن إذا لم تدفع قيمة الجمارك النظامية، هذه المؤيدات بها ينضبط الناسُ في حياتهم المدنية، فما قولك بجهنم في الآخرة إلى أبد الآبدين؟! أيُّ عقابٍ يُوقِعُهُ إنسانٌ لا قيمةَ له أمام هذا العقاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:٥٦]، فيومُ الحسابِ في الآخرة يوم صعب!

كلُّ واحدٍ منَّا مِن خلال خبرته في الحياة أمامَهُ أيامٌ عصيبة (صعبة وشاقة) مع إنسان من بَنِي جِنْسِه، لكنه أقوى منه، قد يكون بإمكانك أنْ تُخفِيَ عن هذا الإنسان بعضَ المخالفاتِ، وبإمكانك أنْ تشتريَهُ، وبإمكانك أنْ تَصرِفهُ، وبإمكانك أنْ تكذب عليه... أمَّا مع اللهِ سبحانه فلن تستطيعَ أن تكذب لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولن تستطيع أن

تَحتَـالَ، ولن تسـتطيع أن تُخفِـي، لا تخفَى منكم خافية (أي: سـر)! فلا تتغافَلْ (أي: تتظاهر بأنك غافل أو ساهي وأنت لست لذلك).

الكلامُ المفيدُ المُجدِي الواضحُ الدقيقُ: هو أنَّ الإيمانَ باليومِ الآخِرِ - وَحْدَهُ - هو الذي يحمِلُ الناسَ على الاسـتقامة، الإنسـانُ لا يُعَدُّ ذكيًّا إذا أخذ شيئًا ودفع مقابِلَه أضعافًا مضاعفة، هذا شيء واضح في حياتنا.

مثلًا: إذا نقلتَ بالطائرةِ حاجاتٍ، ووجدتَ أنَّ أجرةَ نَقلِها بالشـحن الجـويِّ أغلَى من ثمنها، فإنك لا تفعلُ ذلـك! وكذلك أمورُ الدنيا، أنت عندك حسـابُ أربـاحٍ وخسـائرَ، وما ينبغـي أن تفعل، ومـا لا ينبغي أن تفعل! فلماذا في أمورِ الآخرةِ تُغْفِلُ الحسـابَ الدقيقَ (حسـاب أعمالك في الدنيا)؟

جَهِّزْ جوابًا قبل أنْ تلقَى ربَّكَ:

نصيحةٌ أخويَّةٌ أنصحُ بها نفسـي قبلَكُم: قَبْل أنْ تفعلَ شـيئًا، قبلَ أنْ تتَّخـذَ قـرارًا، قبلَ أن تعطِي، قبـلَ أن تأخُذَ، قبلَ أنْ تمنـعَ، قبلَ أنْ تصِلَ، قبل أن تقطع، قبل أن تغضب، قبل أن ترضى، قبل أن تزور فلانًا، قبل أن تُعاديَهُ... هَيِّئْ جوابًا لله عز وجل.

البائعُ مع الزبائن، والموظَّف مع المواطنين، والطبيب مع المرضَى، والمحامـي مع الموكِّلين، والمدرِّس مع الطـلاب... لو أن هذا الطالبَ سُـئِل يـوم القيامة، فقال: يا ربِّ لَمْ يُعلِّمنا شـيئًا، وأمضَـى الوقتَ بكلامٍ فارِغٍ! ولـو أنَّ هذا المريضَ قال: يا ربِّ، لَمْ يُعالجنِي، بلِ ابْتَزَّ مالي، ولو أنَّ هذا المـوَكِّل قال: يا ربِّ، لَمْ يُدافِع عنِّي، ولكنَّه أَوهَمَني، ولو أنَّ هذا المُشـترِي قال: يا ربِّ، غَشَّـني، أخذَ منِّي أضعافَ ثمنِ هذه البضاعةِ...

بماذا تُجيبُ اللهَ عز وجل؟ إنك لا تكون عاقلًا إلا إذا هيَّأتَ لله عز وجل جوابًا عن كلِّ حركةٍ وسَكَنَةٍ، عن كلِّ موقفٍ، عن كلِّ عطاءٍ، عن كل أَخْذٍ، أنت في بيتك محاسَبٌ، مع أولادك محاسَبٌ، مع زوجتك محاسَبٌ، مع جيرانك محاسَبٌ، إن لم تنصحِ المسلمين محاسَبٌ؛ لأنَّ الدين نصيحةٌ، ونحن مأمورون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الاستِعْلاءُ على عبادِ اللهِ ثَمَنُهُ جهنمُ:

هذا الذي يتحرَّك حركةً عشوائيَّةً في حياته، يأخذُ ما ليسَ له، يستعلِي[1] على عباد الله، يُلقِي في قلوبِهم الرعبَ، فهذا الذي يتحرك حركةً لا تُرضِي اللهَ، مَنِ الذي يحميه من الله عز وجل؟ كمْ مِنْ إنسانٍ أقسَمَ يمينًا غموسًا (كاذبًا فيه) أمامَ القاضي، بعدَ ساعةٍ من الزمن كان مشلولًا! هم كثيرون..، هذا الذي لا يخاف اللهَ لا يعرفُ اللهَ؛ لأنه لو عرفَهُ لارْتَعَدَتْ مفاصله خَشيةً منه سبحانه.

الإنسان حينما يخاف في الدنيا يُطمئِنُه اللهُ في الآخرة:

يقول اللهُ تعالى في الحديث القدسي: «وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوفَينِ ولَا أَجْمَعُ لَه أَمْنَينِ، إذا خَافَنِي في الدُّنيا أَمَّنْتُهُ يومَ القِيامَةِ، وإذَا أَمِنَنِي في الدُّنْيا أَخَفْتُهُ يومَ القيامَةِ» [رواه ابن المبارك]؛ لذلك قال الله تعالى:

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ... ﴿١١﴾﴾

١- يتكبر.

النجاة من عذاب يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ [١] شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ [٢] كُلُّ مُرۡضِعَةٍ [٣] عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ [٤] حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ [٥] وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج:١-٢].

أنْ ينجوَ المؤمنُ من هَولِ هذا اليوم وشِدَّته، هذا هو الفوزُ العظيمُ، وهذه هي السعادةُ الأبديةُ.

إنسانٌ مُؤَدٍّ كلَّ ما عليه تُجاهَ القوانينِ، فلو جاءَهُ مأمورُ الضرائبِ هو يَشعُرُ براحةٍ؛ لأنه مُواطِنٌ صالحٌ، دافِعٌ للضريبة في وَقتِها، أمورُه كلُّها صحيحة، تجده مُرتاحًا، فإذا كنتَ مرتاحًا - بعد أداء ما عليك - مع إنسان، فكيفَ معَ اللهِ عز وجل؟ لذلك فإنَّ اللهَ عز وجل قال يبشِّرُ المؤمنين:

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١﴾.

وَجْهٌ مُتَأَلِّقٌ، قَلبٌ مسرورٌ، نضارةٌ في وجوههم، و سرورٌ في قلوبهم.

قد يكونُ الإنسانُ أنيقًا، جميلَ الصورةِ، لكنَّ قلبَه مُظلِمٌ، وقد يكونُ في راحةٍ في قَلبه، لكنْ يوجَدُ كآبةٌ في وَجهه، أما كمالُ السعادةِ فَأَنْ يكونَ

١- زلزلة الساعة: هي يوم القيامة، وفيه الأهوال الشديدة.

٢- تذهل: تنسى وتندهش وتتحير من شدة الخوف.

٣- مرضعة: التي لها مولود ترضعه.

٤- كل ذات حمل: المرأة الحامل.

٥- سكارى و ما هم بسكارى: أي متحرين من الكرب والهول وليس السكر من شرب الخمر.

القلبُ مسرورًا والوجهُ مُتَأَلِّقًا نَضِرًا.

جزاء الصبر:

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

الدِّيـنُ كلُّه صبرٌ؛ غَـضُّ البَصَرِ[١] يحتاجُ إلى صبرٍ، ضبطُ اللسـان[٢] يحتـاج إلى صبر، أنْ تَكُفَّ أُذُنك عن سـماعِ الغناء الماجن[٣] يحتاج إلى صبر، وهناك حديثٌ ممتعٌ لكنْ فيهِ غِيبَةٌ، فاللِّسـانُ ينضبطُ صبرًا، والعينُ تنضبط صبـرًا، والأذُن تنضبط صبرًا، وأنْ تكون قويًّا ثم تخشَـى اللهَ عز وجل؛ فلا تَسْتَعمِلَ هذه القوةَ إلا فيما يُرضِي اللهَ، هذا يحتاج إلى صبر.

أنْ تمشـي إلى بيـوت الله -فقط- يحتـاج إلى صبـر، يوجَدُ بيوتٌ أُخرَى فيها أضواءٌ، فيها جَمالٌ، فيها طعام، وفيها نساءٌ كاسياتٌ عاريات، أنْ تتجه إلى المسـجد، وأن تأوي إليـه، وآخرون يتَّجهون إلى الملاهي، إلى السهرات المختلَطة، الماجنة، إلى الحفلات، يُمتِّعون أعينهم بالنساء الحسناوات (الفاتنات)، ويتحدثون مِنْ لَغْوٍ[٤] الكلام! المؤمن يتجه إلى مجلس علـم، ليتعلم كتابَ اللهِ ليَرْضَى اللهُ عنه، ولينفِّذ أمرَ الله.. يوجَد فرقٌ كبيرٌ جدًّا، لذلك فإن جزاء هذا الصبر: الجنة ونعيمها.

حلاوة الإيمان ثمنها ضبط الجوارح (أعضاء الإنسان):

هذا الذي ضَبطَ[٥] شـهواتِهِ، ضبط لسانَه، ضبط عينَه، ضبط سمعَه،

١- أي الكف عن الاسترسال بالنظر إلى المحرمات.

٢- صون الكلام عن ما لا يجوز أو لا يصح أو لا يليق.

٣- الذي فيه إثارة الغرائز.

٤- الألفاظ التي لا فائدة منها.

٥- سيطر على نفسه.

ضبط أذنه، ضبط دَخْلَهُ[1]، لا يقبل إلا قِرْشًا حلالًا يُرضِي اللهَ عز وجل، لا يأخذ إلا مبلغًا واضحًا، ومعاذ اللهِ أن يأخذه لو كان فيه شُبهَةٌ، وقد يكون في أَمَسِّ الحاجة إليه، لكنه يقول: معاذ الله، الله الغني! وَاللَّهِ يوجد مواقف مثل ذلك فيها بطولة.

قد يكون إنسانٌ فقيرٌ يحتاج إلى القليل، يُعرَض عليه مئاتُ الألوفِ ليكتب مثلًا شهادةَ وفاةٍ طبيعيةٍ، يقول لك: معاذ اللهِ أنْ أخون أمانتي، الطِّبُّ الشرعي أمانة، أبدًا.

الله عز وجل قد يضع الإنسان في موقف صعب ليكشف حقيقته، فمَنْ يقول: أنا لا آخذُ قِرشًا حرامًا على مستوى ألف وما دون، أما مليون نقدًا، فإنه يفكِّر فيها! وقد يقول: عندي أولاد ومصاريف كثيرة ومسؤوليات كبرى، ماذا أفعل؟ جميع الناس يفعلون هذا! فالله عز وجل يضع الإنسان في موقف ليكشف حقيقته! مهما حاولت أن تخفي حقيقتك، فالله يكشفها، في ظرف صعب، والحديث الشريف عن أنس ابن مالك رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا...» [أخرجه البخاري].

إنسان يسكن في بيت مُستأجَرٍ، والقانون معه، لكنه سلَّمه لأصحابه عن طِيبِ قلبٍ من غير تعويض من صاحب البيت (خُلُوِّ رِجْلٍ) خوفًا من الله، مع أن القانون يحميه إلى ما شاء الله، هذا الذي يخاف الله في

---

١ – العائد والأجر مقابل العمل.

الدنيا، هذا الذي يخشـاه، هذا الذي يقف عند حدوده[1]، ضابط لأموره، هو قائد على نفسـه وليس مَقُودًا (أي: إن النفس الأمارة بالسـوء تقوده) لها، وبالتالي: فإن الله تعالى سيعوّضه عن ذلك أضعافًا مُضاعَفَة، إما في الدنيا أو في الآخرة جزاءً لعمله هذا.

الإنسـان المؤمن دائمًا مسـيطر على نفسـه، دائمًا يملك زمامها[2]، دائمًا يُرضِي اللهَ ولا يَعبَأ بالنتائج، العبرة أن أكون في طاعة الله، العبرة أن يرضَى اللهُ عنِّي، الله عز وجل يتكفل بالباقي، والإنسـان - في الأصل - ليـس مكلفًا إلا بهـذا، قال تعالـى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٦].

مهمة الإنسان في الدنيا:

* عبادة الله تعالى: على الإنسـان أن يعبد الله وَحْدَه، فإذا عبده كما أراد الله سبحانه جاءته الخيراتُ مِن كل جانب.

* شكر الله عز وجل: على الإنسان أن يشكر الله باستمرار.

لـك مُهِمَّتان، وَاللَّـهِ الَّذِي لا إِلَـهَ إِلا هُوَ لا تحتاج إلـى مهمة ثالثة، اعبده واشكره، قال رسول الله ﷺ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّـهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ» [أخرجه البخاري]. فهذا ضمان من الله عز وجل.

١- محارم الله التي نهى عن ارتكابها.

٢- أي يتحكم فيها.

أحيانًا الناس يُسحَقُون بالهموم (تشتد عليهم وتكثر)، وأنت واثق من رحمة الله، تدعو فتقول: يا ربُّ، أرجو رحمتك؛ فلا تَكِلْنِي إلى نفسي طرفة عين، وأنت واثقٌ من حفظ الله لك، لقول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩]، أي إن الله معهم بالحفظ، وبالتأييد، وبالنَّصْر، وبالتوفيق...

وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ لا يوجد إنسان مؤمن يخطب وُدَّ (تودد إليه طلبًا لرضاه) اللهِ بطاعته، والاستقامةِ على أمره، والإقبالِ عليه، والتقرُّبِ منه، إلا رأى العَجَبَ العُجَابَ (أي: أروع نتيجة سارَّة غير متوقَّعة)، يرى معاملة لا تُصدَّق من قِبَلِ الله عز وجل، حفظٌ ودعمٌ وتأييد وتوفيق، ومعاملة جيدةٌ من قِبَلِ الناس؛ حيث سخر (أَخْضعَ وسَيَّر) اللهُ تعالى أعمالهم لك، هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩]، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩]، وقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤].

قال أحد الصالحين - داعيًا ومخاطبًا الله تعالى -:

إذا كنتَ في كلِّ حالٍ معي فَعَنْ حَمْلِ زَادِي أنا في غِنَى

والزاد: ما يكسبه الإنسان من خير أو شر في حياته.

طاعةُ الله ثمنُ محبتِهِ لك:

إذا كان الله معك فمَنْ عليك؟! وإذا كان عليك فمَنْ معك؟ أتزهد[1]

١- تترك وتستغني.

بمعيَّـة اللهِ عز وجل؟ إلهٌ عظيمٌ بيده ملكوتُ السـماواتِ والأرضِ، بيده كلُّ شـيءٍ، إليه يُرجَع الأمرُ كلُّـه، قُدْرَتُهُ، ورحمتُهُ، وعلمُهُ، ولطفُهُ معك، الثمن أن تطيعه فقط، بإمكانك أن تطيعه، إنها ضمن وُسعِكَ[1]، لا يكلف الله نفسًـا إلا وسـعها، كلُّ ما عنـد الله تنالـه بطاعته فقـط، وطاعتُهُ بين يديـك، وأنت تقدر عليها، وقد ركّب في فطرتك أن الحق تعرفه بالفطرة وأن الخطأ تعرفه بالفطرة.

الفطرة: وهي ما جبل عليه الإنسان في أصل الخلقة عند الولادة من الأشياء المادية والأمور المعنوية، أي: شعور الإنسان بأنَّ هناك خالقاً له، ولا يحتاج إلى استدلال علمي أو تجربة علمية.

ضبط الشهوات وفق منهج الله:

الإيمـان هو الصبـر، أنت ضابطٌ لشـهواتك، ضابـطٌ لغرائزك (هي التصـرف الفطـري لسـلوك معين تجـاه محفـزات بيئية معينـة)، ضابط لمُيُولِـك، ضابط لهـا وَفْقَ منهـجِ اللهِ، وكلُّ شـيء في الدنيـا فيه حركةٌ عشـوائية، ويوجَـد حركةٌ محددة وَفْـقَ المنهج، لك أن تَرَى كلَّ شـيء، ولك أن تنظر كما تشاء إلى مَن تحِلُّ لك (هذا هو الدِّينُ)، يسمع الإنسان كلَّ شـيء، أما المؤمنُ فيسـمع ما يَحِلُّ له، لك أن تتحرك إلى أي مكان، لكنَّ المؤمنَ مقيَّدٌ بالشرع؛ لأنه يوقن بأن جزاءَه بعد هذا الضبط في الدنيا أنْ يسعَدَ بالجنة الدائمة في الآخرة.

---

١ – مقدرتك

مشاهد من الجنة قال تعالى:

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾

الآن: ربنا عز وجل بحكمة بالغة أراد أن يقدم لنا مشاهد من الجنة.

فيها ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خطر على قلب بَشَرٍ.

المباحات في الآخرة:

الحُـوْرُ العِيْـنُ: لا يحـقُّ لـك أنْ تنظر إلى امـرأة بغير حـق لا تحِلُّ لـك في الدنيا، لكن فـي الجنة هناك حُورٌ عِينٌ، لـو أطَلَّتْ إحداهُنَّ على الأرض لغلب نورُ وجهِها ضوءَ الشـمس والقمر، هذه مباحة يوم القيامة مـن دون حرج، للذي غَـضَّ بَصَرَهُ في الدنيا، وقال إنـي أخاف اللهَ ربَّ العالميـن، أما أهـلُ المَلَذَّات في الدنيا فيتَّهمُونَـه، ويقولون له: انظر؛ إن اللـهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ! فهؤلاء لن يكـون لهم حور عين في الآخرة، بل سيحاسبون حسابًا عسيرًا على هذه الملذات.

فيها أنهارٌ من عسل مصفًّى، وعسل الجنة غير عسل الدنيا، لكن الله سـماه عسـلًا كي يقرب المعنى إليك، أما عسـل الجنة فلا يُقاسُ بعسل الأرض.

اختـلاف المـرأة: المرأة فـي الجنة لا تقـاس بالمرأة فـي الأرض، وكذلك الرجال بالنسبة للنساء.

١. الجنة: البساتين الجميلة ذات الأشجار الوارفة والفواكه اللذيذة والبسـاتين فـي الجنـة لا تقاس ببسـاتين الأرض، لكـن لا يوجد طريقة أخرى.

٢. الحرير: الحرير في الدنيا ممنوع للرجال، لكنه في الآخرة مباح.

فربنا عز وجل يستخدم هذه الكلمات نفسها ليقرب لك حال أهل الجنة، مع أن حال أهل الجنة لا يعلمها إلا الله تعالى.

٣. الجلسات المريحة.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾

في بعض أيامِ الربيع أو أيامِ الخريف تجدون الجوَّ رائعًا، لا بردَ ولا حَرَّ، لا تحتاج مدفأةً، ولا مكيِّفًا، ولا مروحةً، جوٌّ لطيف، ونسمات لطيفة، هذا حال الجنة...

أحيانًا إنسان يجلس على كرسي قاسٍ نصف ساعة فيتضايق، كرسي صغير يصلح للجلوس ربع ساعة أو عشر دقائق فقط، أما الجلسة الطويلة فتحتاج إلى أثاث مريح، واسع، عريض، يستوعب الجسم كله، وفيه مرونة بالغة... وأحيانًا الإنسان على الأرض يغير جلسته مرتين أو ثلاثًا، كلما جلس جِلْسَةً تؤلمه أقدامه أو ظهره، فيغير من جِلْسَته، لأن الأرض قاسية، أما على كنبة وثيرة جدًّا تسمى الأريكة، تجلس عليها وقتًا طويلًا من غير تعب، لا تغير جلستك، فالجلسة مريحة.

فما بالك بهذا الحال في الجنة في جوٍّ نسيم هادئ؟

٤. شجر الجنة قال تعالى:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾

ظِلُّ الشجرةِ في الصيف لا يُقَدَّرُ بثمنٍ، سبحان الله! يوجَد نباتاتٌ خلقها اللهُ خِصِّيصًا لتكون مِظَلَّةً، هذا الزيزفون عبارة عن دائرة نظامية

(طريقة منظمة)، كثيفة جدًّا، دائمة الخضرة، أوراقها صغيرة، تتراقص مع الريح، جِذْعُها مستقيم، وتقدم لك ظلًّا لا يُقَدَّر بثمن، وخصوصًا في الأيام ذوات الطقس الحار.

الإنسان أحيانًا يرى نخلةً فارعةَ[1] الطولِ، فيها بَلَحٌ شهيٌّ، لكنه بعيد، أما الفواكه في الجنة فهي بمتناوَلِ اليد، أنت واقف وأنت جالس وأنت مضطجع[2] بمتناول يدك، هي تأتي إليك لتقطفها!

أحيانًا تجد ثمرة صبَّارة في الصيف؛ فتتمنى أن تأكلها، لكنها ممتلئة بالشوك، هناك مشكلة، تريد قفازات! هناك مزروعات مرشوشة بالمواد المبيدة، يجب أن تغسلها جيدًا، وإلا كانت مشكلة، أما في الجنة فلا تحتاج أن تغسلها، ولا فيها شوك، ولا فيها بذور، ولا هي عالية، وكذلك لجميع الفواكه، هذا حال نعيم أهل الجنة، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [النحل:٣١].

في الجنة اطْلُبْ تُعْطَ، خاطِرٌ يأتيك فإذا به أمامك، أما في الدنيا فيأتيك ألْفُ خاطرٍ، لا يتحقق واحد منها، فسبحان المُعطِي الوَهَّاب الكريم...

٥. استعمال الفضة والذهب في الجنة، قال تعالى:

﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥﴾

١- عالية.

٢- مستلقي.

يطاف عليهم: أي يقدم إليهم في أماكن كثيرة في الجنة.

استعمال أواني الذهب والفضة محرَّم في الدنيا، والفضة لها اختصاص دقيق جدًّا، فهي معدن مُعقِّم.

يوجد أنواع ثمينة جدًّا من كؤوس الكريستال، والجنة كؤوسها من فضة وبصفاء البلور فتجمع الاثنين معًا، وهي القوارير[1].

أحيانًا في حياتك الدنيوية قد لا يأتي الكأس متناسبًا مع حاجتك، تحتاج إلى ماء كثير في الصيف، فيأتي الكأس صغيرًا، وفي الشتاء يأتيك كأس ماء كبيرٌ، وأنت تريد ربعه، في الجنة يكون الكأس بقدر حاجتك.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾

والكأس هو القارورة التي فيها شراب.

أحيانًا إنسان يُضَيفك شرابًا معه ماءُ الزَّهرِ، أو شايًا معطرًا؛ مُبالغةً في الإكرام، أو قهوة مع هيل... تشعر بانتعاش بهذا العطر، أما في الجنة فإن هذا الشراب بطعم الزنجبيل، وهذا المزيج له طعمٌ خاصٌّ في الجنة...

٦. في الجنة عين تسمى السلسبيل، قال تعالى:

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾

يُسقَون من عين في الجنة اسمُها السلسبيل، ينبع منها ماءٌ عذبٌ فُرَاتٌ (أي: مُستَساغٌ).

١- زجاج كريستال شفاف.

٧. يطـوف[١] علـى الناس في الجنـة وِلْدانٌ مُخلَّـدون في جمالهم لخدمتهم، قال تعالى:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾

في الفنادق الراقية جـدًّا - بمقياس الأرض - يتم اختيار الموظفين الذيـن لهم وجهٌ حسَـنٌ لخدمة الضيوف، الوجه الصَّبُـوح[٢] له أثرٌ كبير، حتى بعض المحـلات التجارية يهمهم - إذا أرادوا أن يجذبوا الزبائن - أن يكـون الموظف لَبِقًا[٣]، وهِندامُهُ[٤] حسـنًا، ووسـيمَ[٥] الصورةِ، هذا شيء طبيعي في العلاقات العامة.

ما معنى مُخلَّدون؟ في هذا الشـكل الحسـن، فـي هذه النعومة، في هذا اللطف، في هذا الحياء، في هذه الطبيعة الطيبة، في هذا الجمال.

ثمن الجنة:

والثمن «الطاعـة»، والثمن بين أيديكم جميعًـا، الانضباط في نظام أخلاقي وسـلوكي، والصبـر لوقت محدود في الدينا، ثـم الجنة إلى أبد الآبدين في الآخرة.

هنـاك مثل مـن واقعنـا: أحيانًا تركب مركبة (سـيارة) علـى اليمين شـمس، وعلى اليسار ظل، المركبة سـوف تدور دورة كاملة بعد دقيقة،

١- يدور ويتقرب.
٢- مشرق وجميل.
٣- لطيفًا على خلق.
٤- ثيابه.
٥- الوجه الحسن.

ينعكس الوضع إلى مسافة طويلة جدًّا، فالذي يختار الشمس لدقيقة ويتمتع بالظل لساعات أذكى بكثير من الذي يختار الظل لدقيقة ويحترق بالشمس لساعات، الدنيا محدودة، والإنسان فيها يعيش لعمر محدود جدًّا، صلَّى الصلواتِ الخمس، غضَّ بصره، ضبط لسانَه، ضبط دَخْلَهُ، بيتُه إسلامِيٌّ... ماذا بقي؟ بقيت له الجنة إلى أبد الآبدين.

فالمؤمن أدَّى (أتم وأكمل فِعْلَ) الذي عليه، بقي الذي له، أما غير المؤمن، فقد تمتَّع مُتَعًا غير شرعية رخيصة لفترة قصيرة، وسيتحمل العذاب إلى أبد الآبدين، لقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦]، وقال تعالى أيضًا: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧].

الآخرة خير من الدنيا وأبقى:

إذا خيَّرْنا إنسانًا بين أن يركب سيارة لربع ساعة، أو يتملك دراجة دائمًا، ما الذي يختار؟ طبعًا يختار الدراجة، ولو خيَّرناه بين سيارتين متشابهتين تمامًا، واحدة ربع ساعة، والثانية دائمًا، هل يتردد ثانية في اختيار السيارة الثانية؟ ولا ثانية واحدة...

لو عَكَسْنا المثلَ، تركب دراجةً ربع ساعة، أو تتملك سيارة غالية الثمن إلى أبد الآبدين، هل تتردد ثانية واحدة؟ إذَن كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٧].

خير وأبقى لماذا؟ لأمَدِها اللَّانهائي (أي للأبد)، ونعيمِها المُقِيم (أي دائم لا يزول)، أما هذا الذي يختار الدنيا على الآخرة فهو أحمق، اختار شيئًا أقلَّ وأقصرَ مدة (الدنيا)، والمؤمن اختار الآخرة، يقال للمؤمن أنت

زاهـد(أي منصرف عن الدنيا)، لا، ليس زاهـدًا، الزاهد هو الكافر، زهد بعطـاء الله، زهد بالجنـة، أما المؤمن فهو طمَّاعٌ فـي الخير، طموحٌ (أي يمتلك الحافز لبلوغ الهدف)، آثر[1] الآخرةَ على الدُّنيا.

مَـنْ آثر آخرتَهُ علـى دُنياه ربحهما معًـا، ومَنْ آثر دنيـاه على آخرته خسرهما معًا، ومِنْ أجمل الدعاء: اللهم، اجعلْ نَعيمَ الدنيا متَّصلًا بنعيم الآخرة!

النعيم الأرقى في الآخرة هو النظر إلى وجه الله الكريم:

كلُّ شـيء في الجنة مُسـعِدٌ، بدءًا من الجنات التي تجري من تحتها الأنهـار، إلى الفواكه التي قطوفها دانيـة، إلى الحور العين التي لو أطلَّت إحداهُـنَّ علـى الأرض لغلـب نور وجهها ضـوءَ الشـمس والقمر، إلى الولدان المخلدين الذين يطوفون على أهل الجنة، وهذا كُلُّه نعيمٌ حِسِّيٌّ (أي يحـس بها في جسـده)، أمـا النعيم الأرقى فهو النظـرُ إلى وجه الله الكريم، لقول اللـه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس:٢٦].

قـال العلمـاء فـي قولـه تعالـى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي الجنة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: النظر إلى وجه الله الكريم، هل هناك شـيء فوق هذا؟! لا والله...

وقـال تعالـى فـي آيـة أخـرى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ

١- فضل واختار.

وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:٧٢].

والرضوان من الله هو: رضا على المؤمن.

إن الله مع المؤمنين:

قد تنظر إلى شيء رائع، ولكن هذا الشيء الرائع لا ينظر إليك! أما رضوان الله عز وجل فهو أعظم شيء يناله مخلوقٌ في الكون، ووسائل الرضا بين يديك، وإذا شعرت أن الله راضٍ عنك وأنت في الدنيا فأنت أسعد الناس، لأنك تحت ظِلِّ الله (أي في رعايته ورحمته)، ولأنك في رعاية الله، ولأنك في توفيق الله، ولأنك في نصر الله، شعورُ أنَّ الله معك لا يوصَف، لا يعرفه إلا مَن ذاقه.. إن الله مع المؤمنين، وإذا كان اللهُ خالقُ الأكوانِ معك، فمَن يستطيعُ أن ينال منك؟!

إذا كان الله معك فمَنْ عليك، وإذا كان عليك فمَن معك؟ وإذا تخلَّى الله عنك تخلى عنك أقربُ الناس إليك، وقد يُهان الإنسانُ في عُقْرِ[1] بيته ومِنْ أقربِ الناسِ إليه، وقد يُخيِّب أقربُ الناسِ إليه ظَنَّهُ، وقد يرَى العَجَبَ العُجَاب إذا تخلى الله عنه، وإذا كان معه سَخَّر له أَلَدَّ[2] أعدائه، ومَن هابَ[3] اللهَ هابَهُ كلُّ شيءٍ، ومَن أطاع اللهَ أطاعه كلُّ شيءٍ.

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ[4] وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا

١- داخل.

٢- شديد الخصومة.

٣- عظم وخاف.

٤- حدود الله: محارمه التي نهى عن ارتكابها وانتهاكها.

وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[النساء:١٣].﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ[1] تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى[2] ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ [الرعد:٣٥]. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ[3]﴾ [ق:٣٥]. ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾[4] [القيامة:٢٢-٢٣]. أي شيء يخطر في بالك تراه أمامك ومتجدِّدًا إلى أبد الآبدين، وفوق هذه النعم الحسية، هناك نعم النظر إلى وجه الله الكريم، وفوق هذا وذاك، رضا اللهِ عليك.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ٢٠ ﴾

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ أي: يا محمد.

﴿ثَمَّ رَأَيْتَ﴾، ثَمَّ: ظرفُ مكانٍ بمعنى هناك (إشارة إلى المكان البعيد) ويقصد الجنة في الآخرة.

مقام المؤمن في الجنة «مُلكٌ كبير»:

إذا علمتَ أن رجلًا له قصرٌ مساحته عشرون ألف متر مربع، قاعة الاستقبال ألفا متر مربع، والمداخل، والحمامات، وغرف النوم، والذهب المزين به الأقواس، والشيء الذي لا يوصف... هذا لا يُسمَّى بيتًا، ولا مَسكنًا، حتى ولا قصرًا، هذا مُلْكٌ كبير.

مثل آخر: إنسان عنده عشرات السيارات، عنده عدة طائرات، عنده

١- أكلها دائم وظلها: أي طعامها وشرابها والظلال دائمة لا انقطاع لها).

٢- عقبى: أجرة خاتمة وآخر الأمر.

٣- مزيد: أي زيادة على جزاء ما عملوا وطلبوا.

٤- أي الوجوه تكون مشرقة سعيدة من النظر إلى وجه الله.

يُخُـوتٌ في البحر، عنده في كل مكان جميل من العالم قصرٌ، نقول: هذا مُلكٌ كبير.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْـدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَـمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» [أخرجه مسلم].

الإحسان ثمن الجنة:

بينـك وبيـن الجنـة أنْ تطيـع اللـهَ، وبينك وبيـن الجنـة أن تعبده، وبينـك وبيـن الجنة أن تفعـل الصالحـات، لقوله تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٧-١٠٨].

هذا كلام الله، هذا ليس كلام أديب[١]، ولا خيال شـاعر، هذا كلام خالق الكون سـبحانه، فما عليـك إلا أن تدفع الثمن، ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[٢] [النحل:٣٢].

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾[٣] [الذاريـات:١٥-١٦]، ثم ذكر سـبحانه سبب هذا النعيم: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ[٤] ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ[٥] هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ

١- كاتب مثقف.

٢- أي بما كنتم تعملون في ما أراد الله في الدنيا.

٣- أي آخذين من أصناف النعم راضين بما أعطاهم الله من النعم التي تمنوها.

٤- يهجعون: ينامون.

٥- من أحب الأوقات للعبادة، وتبدأ من الثلث الأخير من الليل إلى طلوع الفجر.

حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ[1] لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:١٦-٢١]، أي: كانوا يفعلون ذلك في الدنيا.

فهـذه الجنات، وهذا النعيم المقيم بسـبب الإحسـان فقط، وكلمة (إحسـان) مُطْلَقَة، في كل حركات المؤمن وسَـكَنَاتِه وأقواله وتصرفاته، مُحْسِـنٌ فـي بيته، فـي عمله، مع مَن حولَـه، مع من فَوقَه، مـع من دونه، عَمَلُـه مُتْقَن، كلامُه طيِّبٌ، تصرفاتُه أدبية، ثيابه سـاترة، نظراته متواضعة، (محسن) كلمة مطلقة تنظم كل حركات الإنسان في الدنيا.

طاعتك لله لا تتناسب مع الأجر العظيم المقدَّم لك:

لا يتناسـب الثمـن مـع المبيـع، فطاعة اللـه عز وجل في سـنوات محـدودة، لـم يمنعك من الطعـام، ولا من الشـراب، ولا مـن أن تأكل وتتزوج وتسـكن في بيـت، أعطاك كل ذلك، لكن يجـب أن تكون وَفْقَ منهج الله.

لـم يكلِّفك أن تصلي مئة ركعة في اليـوم، فقط خمس صلوات، لم يكلفك أن تصوم كل أيام العام وإنما شهر واحد، لم يكلفك أن تحج كل عـام مرة، الحج مرة واحدة في العمر لمن اسـتطاع إليه سـبيلًا، والعمرة مرة واحدة أو أكثر حسب الاستطاعة.

يوجد وقت تنام فيه ثماني ساعات، و وقت تعمل فيه ثماني ساعات، وهناك وقت تقعد مع أهلك، والقيام والعبادات تكون وفق طاقة الإنسان

١- آيات: دلائل ومعجزات الخالق.

وضمن إمكانيته واستطاعته.

لم يحرمك من النساء، قال لك تزوَّجْ، لكن نهاك عن الزنى، حرم عليك الخمر والمسكرات، وسمح لك بآلاف المشروبات التي لا تُعدُّ ولا تُحصَى، لكن اترك الخمر، سمح لك بعشرات الأنواع من اللحوم، ومنعك عن لحم الخنزير فقط، وبعدها هناك جنة عرضها السماوات والأرض أُعِدَّت للمتقين.

عذاب الإنسان الشارد عن الله:

الإنسانُ الشارد (الذي يتطلع إلى غير ما له من متاع ونحوه) حينما يأتيه ملك الموت يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصَعِقُوا (أغمي عليهم)؛ وذلك من شدة الندم، ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي[1]﴾ [الفجر:٢٤]، ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ[2] عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ[3] فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ[4] وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ[5]﴾ [الزمر:٥٦]، ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا[6] ۝٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا[7]﴾ [الفرقان:٢٨-٢٩].

هي كلمات الحسرة والندم تسحق الإنسان، نحن أحياء والآن نعيش

١- قدمت لحياتي: أي عملت أعمالًا صالحة في الدنيا.

٢- يا حسرتى: يا ندمي وأسفي.

٣- ما فرطت: ما قصرت وضيعت.

٤- في جنب الله: أي بما أمرني الله به.

٥- الساخرين: المستهزئين بدين الله وأهله.

٦- خليلا: الصديق المخلص المحب.

٧- خذولًا: بأن يتركه ويتبرأ منه عند البلاء.

في الأرض في بحبوحة، نحن نستمع، أهل النار ماذا يقولون؟ دققوا أهل النار وهم في النار يتصايحون، ماذا يقولون؟ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠]، فهل مِنْ مُعتبِرٍ؟!

جنة الدنيا والآخرة:

إذا استمعت إلى الحق سبحانه وتعالى، واهتديت إلى الله عز وجل، فقد فُزْتَ بالجنة في الدنيا والآخرة، في الدنيا جنة القرب إليه سبحانه، والعيش بسكينة وسعادة المؤمنين، وفي الآخرة جنة الله عز وجل، كما وصفها في كتابه:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

هذه الجنة ثَمَنُها بيدك أيها الإنسان، ثمنها بيدكم جميعًا أيها المسلمون والمسلمات، ثمنها طاعةُ الله، وطاعةُ اللهِ ضمنَ وُسْعِكُم (أي: استطاعتكم وقدرتكم).

ثياب وحلي أهل الجنة:

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ... ﴿٢١﴾﴾

أهل الجنة يرتدون ألبسة خارجية من حرير رقيق وحرير سميك، ثيابًا فخمة وأنيقة جدًّا، خضراء اللون على كلِّ درجات اللون الأخضر، من أجمل ما يكون.

﴿... وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾

وحلوا أي: يتزينون بأساور وحلي من فضة صافية، ويُسقَوْن من أطهر وأطيب وألذّ المشروبات.

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

أنت في الدنيا متزوج وعندك امرأة، لكن وأنت في الطريق، لو مرَّت امرأةٌ حسناء، ليس في الأرض كلِّها قانونٌ يمنعك أن تنظر إليها، ولكنك غضضت[1] البصر عنها خوفًا من الله (وهذا الأمر يسري على النساء أيضًا)، هذا له ثمن.

عُرض عليك دَخْلٌ كبير من شُبْهَةٍ، (من مصدر لا يتحرى الحلال)، أو عملٌ رفيعُ المستوى لكن لا يُرضِي اللهَ، فقلت: مَعَاذَ اللهِ؛ إني أخاف الله رب العالمين، هذا أيضًا له ثمن.

يوجد مكاسب في الدنيا كبيرة جدًّا، أحيانًا يمكن أن تصبح من أصحاب الملايين بمعاملة غير شرعية، بكسب غير مشروع، تقول: معاذ الله، كما قال سيدنا يوسف حسب ما جاء في القرآن الكريم: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ[2] إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ[3] إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣].

الجنة جزاء المؤمن العفيف الطاهر:

أراد رجلٌ من أهل الغِنَى أن يبني مسجدًا في حيٍّ ليس فيه مسجدٌ، بحث عن أرض مناسبة، وَجَدَ هذه الأرض، صاحبُ هذه الأرضِ نالها بالإرث (أي ورثها) قبل أشهر، وهو يعمل حاجبًا (وظيفة بسيطة) في مدرسة ابتدائية، دَخْلُهُ[4] قليلٌ، عندَه ثمانيةُ أولادٍ، يسكن بيتًا بسيطًا،

١- أي منعت نفسك من النظر والتأمل.

٢- معاذ الله: أي استعاذ والتجأ إلى الله تعالى ليعصمه عن المعصية.

٣- ربي أحسن مثواي: أي إن سيده العزيز أكرمه وأحسن مقامه في بيته.

٤- مرتبه وايراداته.

وليس له من الدنيا إلا هذه الأرض.

هذا الرجل الميسور الغني أعجبته الأرض، بحث عن صاحبها، سأل عنه، ساومه[1]، فتمَّ الاتفاق على أن يبيعها له بعِدَّةِ ملايين، وقبِلَ الحاجبُ هذا الثمن، وانتهى كل شيء، وكُتِب العقدُ، وسطَّر هذا الغني (شيكًا) لصاحب هذه الأرض بنصف الثمن المتَّفَق عليه، وقال: الباقي عند التنازل في مكتب الأوقاف، قال لماذا الأوقاف؟ قال له: لأنني سأبني عليها مسجدًا، فما كان من هذا الآذن (الموظف البسيط) إلا أن استرجع الشيك ومزقه، وقال له: أنا أَولَى أنْ أقدمها لله منك، وقدَّمها لله عز وجل، سبحان الله!

يقول هذا الغني: ما مرَّ في حياتي موقفٌ صَغُرْتُ أمامَ إنسانٍ كهذا الموقف، رأى نفسه لا شيء أمام هذا الحاجب، هذا الذي أعطى الأرض ما جزاؤه عند الله؟ له قصور لا تنتهي، الذي أنفق ماله، ما جزاؤه عند الله عز وجل؟

الذي ضبط نفسَه بالشرع، مؤمنٌ يأوي (ينتقل إليه ويقعد فيه) إلى مسجده، فهذا الذي يغُضُّ بصرَه عن محارم الله، يضبط لسانَه، يُنفِقُ مالَه، يرعَى حقوقَ الآخرين، زوجٌ صالِحٌ، أبٌ صالحٌ، جارٌ صالحٌ، عاملٌ مُتْقِنٌ، طبيبٌ نَصوحٌ، مهندسٌ وَفِيٌّ يتقِنُ عملَه، هذا المؤمن المستقيم الصادق الأمين العفيف[2]، هذا له وكذلك لها جنة عَرْضُها السماواتُ والأرضُ، كما وعده ووعدها الله من عطائه، لقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ

١- فاوضه في الشراء.

٢- الذي يعف ويصرف نفسه عما حرم الله وهذا ينطبق على الإناث.

عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣].

نَدَمُ الإنسانِ على الوقت الضائع:

والله لو نعلَم جميعًا ما عَلِمه وعرفه النبيُّ عليه الصلاة والسلام بما أُعِدَّ للمؤمنين من نعيم مُقيمٍ لَمَا نام أحدُنا الليلَ؛ لأن أيَّ ساعة تمضي دونَ أن تذكر اللهَ فيها فهي خسارة، أية ساعة تمضي دون أن تزداد علمًا بالله خسارة، أية ساعة تمضي دون أن تزداد قربًا من الله خسارة، أي شيء تُنفِقه دون أن تبتغي فيه وجهَ اللهِ خسارة، أي لقاء تلتقي فيه بأحدٍ دون أن تذكر الله خسارة، أية نزهة تمضي فيها وقتًا دون أن تذكر اللهَ خسارة، أي اجتماع، أية سهرة، أية وليمة تُقام ابتغاءَ الظهور والتباهي والبذخ خسارة.

روى أبو ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ! وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ» [رواه الترمذي]. (أَطَّتِ: أصدرت صوتًا ثقيلًا. الصُّعُدَاتِ: الطُّرقات. تَجْأَرُونَ: تستغيثون).

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص:٦١].

فالإنسان وعده اللهُ بالجنة، وعده اللهُ بنعيمٍ مُقيمٍ، وعده الله بجنة عَرْضُها السماوات والأرض، وعده برضوانٍ منه، وعده أن ينظر إلى وجه الله الكريم، وهو خالق الأكوان، و الإنسانُ الغافل لا يعبأ بهذه

الوعود، ولا يخشى الوعيد، ويتحرك وَفْقَ شهواتِه، يشتم هذا، ويضرب هذا، ويأكل مالَ هذا، هذا هو الحُمْقُ بعينه، هذا هو الغباء بعينه، هذا هو الشقاء بعينه وسيكون في الآخرة ممن حضر العذاب! قال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

ولله المثَلُ الأَعلى، مثلًا: إنسانٌ يشكُرُ إنسانًا، أبٌ له ولدٌ شارِدٌ[1] عاقٌّ[2]، وإنسانٌ كريمٌ أقنع هذا الابنَ أن يعود إلى مِظَلَّة أبيه، وأن يُرضِي والدَه، وأن يكون ابنًا بارًّا، هذا الأبُ ما شعورُه تُجَاهَ هذا الإنسانِ الكريم الذي أعاد له ابنَهُ؟ سيقول له: أشكرك ولا أنسى فضلَك؛ لأنه سببٌ برجوع ابنه له.

إذَنْ: إذا شخصٌ منكم أكرمه اللهُ بهداية شخصٍ آخَرَ، أقنع إنسانًا بالدِّينِ القَيِّمِ[3]، أقنعه بالاستقامة، أقنعه بالتوبة، وأن يلزم مجلس عِلمٍ، وأن يَدَعَ المُنكَراتِ، هذا الذي ردَّه إلى الله كمْ له عندَ الله؟ هذه الدعوة صَنْعَةُ الأنبياء؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح:

فلا تجِدُ في الأرض كُلِّها إنسانًا أفضلَ ممَّن ساهم وشارك في نشر الحق وَ رَدِّ الناسِ إلى الله، وأقنعَهُم أن يستقيموا، وأقنعَهُم أن يعبدوا الله عز وجل، فالإنسان حجمه عند الله بحجم عمله الصالح، أَلَا تقرؤون

١- تائه وغافل.

٢- عاص لوالديه.

٣- الدين الثابت المستقيم الدال إلى طريق الحق وهو الإسلام.

هـذه الآيـات: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] [النحل:١٢٠]، وقولـه تعالـى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[2] [النساء:١٤٧].

فـإذَا خَدَمتَ للهِ عبادَهُ، ورحمْتَ عبـادَه، وطَمْأَنتَ عبادَه، وتَلَطَّفْتَ بعبـاده، ونَصَحـتَ عبـاده، وأكرمْتَهم، وأعطيتهـم، ودَلَلْتَهُـم على الله، وكنتَ معهم، مَنِ الذي سيشـكرُكَ؟ اللهُ جلَّ جلالُه، ليس من الضروري أن تتعيـن خطيبًـا أو داعيًا رسـميًّا إطلاقًا، ليس من الضـروري أن يكون لـك كتُبٌ وفيديوهات ليكونَ لك اسـمٌ لامِعٌ مشـهورٌ، أنـت إذا أقنعْتَ جـارَك باتِّباع تعاليمِ اللهِ تعالى، ابنَكَ، أخاك، أقرباءَك، صديقَكَ، اعتنيت به، زُرتَهُ، أسـمعته كلامًا طيِّبًا، أعطيته كتابًا ليقرأه، دعوتَهُ إلى المسـجد، تابعتَهُ، تفقَّدْتَه (سـألت عنه)، سـاعدته عند الحاجة... إذَنْ أنت ساهمتَ في هداية إنسان، لك عند الله عطاءٌ لا يعلمه إلا الله.

التجارة الرابحة:

هؤلاء الذين فتحوا الصين، فتحوا شـمال أفريقيا، مصر، السـودان، نصفُ أفريقيا مسـلمةٌ، بنَوا جوامعَ ومسـاجدَ، في الصين يوجَد أكثر من خمسـين مليون مسـلمًا، في أمريكا أكثر من عشـرين مليون مسلمًا، في فرنسـا هناك ألف مسجد، هؤلاء الذين نشروا الحق، ووسعوه، وأسعدوا الناس، هؤلاء ما لهم عند الله؟ هذه هي التجارة الرابحة، هذا هو الذكاء،

١- أي إن سيدنا إبراهيم كان إمامًا يُقتدى به والقانت هو الخاشع، والحنيف هو المطيع المخلص المستقيم المائل إلى الحق.

٢- أي إن الله تعالى لا حاجة له ولا يريد عذابكم إن شكرتموه على نعمه وآمنتم به والله تعالى شاكر لعباده يُجزِل لهم الثواب على إيمانهم به وطاعته.

هـذا هو التوفيـق، هذا هـو الربح، هذا هـو الفلاح (النجـاح والفوز في الآخـرة)، هذا هو التفـوق... الله عز وجل لا ينسـاك عندما تقدم شـيئًا للآخريـن، هم في مسـاجدهم والله فـي حوائجهـم (أي: إن الله تعالى يتكفل لهم قضاء أمورهم وطلباتهم وحاجاتهم).

والله لا يوجد طريقٌ أجمل وأسـعد وأكمل وأشـرف من أنْ تخرج مـن ذاتك لخدمةِ الخَلْق، فيتولى الله شـؤونك، ويكفيـك[1] كلَّ همٍّ في الدنيا.

وعود الله للمؤمن الصالح:

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

وقـال اللـه تعالـى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

فالإنسـان يكون فـي رِضوان الله، وينتظر ما عنـد الله، هذا المؤمن يصيبه ما يصيـب الناس، إذا وُجِد الحَرُّ يذوق الحـرَّ مع الناس، وكذلك في البَرْد، في أزمة المواصلات، هناك أزمةُ سكنٍ، يعاني منها، هناك غلاء فـي الأسـعار، يعاني من هذه الأزمـات، ولكن مثلًا لو أن إنسـانًا موظفًا فقيـرًا عنده ثمانيـة أولاد، دَخْلُهُ ضعيفٌ، وبيتُه بالأجرة (أي مسـتأجرا)، وعليـه دعوى إخلاء (أي ترك المنـزل)، ومصائب الدنيا اجتمعت عليه، وله عـمٌّ حَجْمُهُ الماليُّ (تقدر ثروته) خمسـمائة مليـون، ليس له أولاد،

---

١ - يغنيك ويبعد عنك.

ومـات هذا العم فجأة بحادث، لمَنْ هذه الخمسـمائة مليون؟ لابن أخيه الفقير المُعْدَم، ولكن لا يسـتطيع أن يقبض قرشًـا واحدًا قبل عام، حتى تتـم المعاملات القانونيـة، لماذا هو في هذا العام مِن أسـعَدِ الناس؟ مع أنـه لم يتمكـن بَعْدُ مـن أن يأكل لقمة واحـدة طيبـة، ولا أن يرتدي ثوبًا جديـدًا، ولا يغيـر بيته؟ لأنه دخل فـي الوعد لأنه سـيرث عمه، الآن لا يملك شـيئًا لكنه موعود بخمسـمائة مليون، ربنا عـز وجل قال: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص:٦١]، إذَنْ، أنتَ مُغَطًّى (مؤمَّن) بوعد إلهيٍّ فأنت أعظمُ إنسـانٍ، قال تعالى في آيـة أخرى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[1] [التوبة:٢١].

طريق الهداية طريق النجاة:

لذلك يجـب أنْ نسـعَى، وأنْ نبـذُل جهدَنا، وأنْ نتحـرَّى الحلالَ، يجب أن نُقِيم[2] الإسـلامَ فـي بيوتنا، أن نقيمه في أعمالنـا، إذا أقمتَهُ في بيتـك، وأقمتَهُ فـي عملك، أدَّيتَ ما عليك، وانتهـى الأمر، لا تحمِلْ همَّ الجميع؛ لقولـه تعالـى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

الله عز وجل قال هذا للنبيِّ الكريم، عليك بالدعوة فقط، أما الهداية فهي من الله تعالى، وقال في آيات أخرى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ

١- النعيم المقيم هو العطاء الدائم التي لا يزول.

٢- نثبت ونفعل.

﴿بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[1] [القصص:٥٦].

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر:٤١].

﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾[2] [الأنعام:١٠٤].

﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾[3] [الغاشية:٢١-٢٢].

هذا مقام النبوة، وما على الرسول إلا البلاغ المبين، قال الله تعالى مخاطبًا نبيَّه ﷺ:

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣﴾

أحيانًا ربُّنا جل جلاله يذكُر ذاتَه بضمير المفرد، مثل: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:١٤]، وهنا وردت «نَحْنُ»! قال بعض العلماء: إنَّ الله جل جلاله إذا ذكر «ذاتَه العَلِيَّة» جاء بضمير المُفْرَد، وأما إذا ذكر «أفعالَه العظيمة» جاء بضمير الجمع؛ لأن كلَّ أسمائِه الحُسنَى داخلةٌ في أفعاله، أي: فِعْلُ الله فيه رحمةٌ، فيه عَدْلٌ، فيه حكمةٌ، فيه لُطْفٌ، فيه قوة، فيه قهر أحيانًا، أفعاله فيها كل أسمائه سبحانه؛ لذلك فالحديث عن أفعالِه يكون بضمير الجمع، كما جاء في الآية الكريمة:

١- أي: إن الله الذي يهدي الخلق كما يشاء بمقتضى حكمته، وهو يعلم من هو الذي أخذ بطريق الهدى فيزيده الله هدىً.

٢- بصائر أي: حجج واضحة وبراهين بينه.

٣- أي ذكِّر الناس بما أنزل الله عليك يا محمد تذكيرًا فقط، وليس عليك إجبارهم على الهدى بالقهر والقوة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ [ق:٤٣].

الوحي لا يَمْلِكُهُ النبيُّ الكريم:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

(تنزيـلًا) مفعول مُطلَقٌ مُؤكِّدٌ للفعل، أي: هذا ليس من عند محمد، بـل هو وحيٌ من الله نزله الله عليه، والوحي لا يملكه النبي عليه الصلاة والسلام، لا يملك له جَلْبًا[1] ولا دَفْعًا[2].

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ... ﴿٢٤﴾﴾

هذه الآية رائعة جدًّا؛ حيثُ أمر اللهُ عز وجل النبيَّ الكريم بـ:

الصبر على تنفيذ أمْرِ الله.

الصبر على ترك ما نَهَى اللهُ عنه.

الصبر على قضاء الله وَقَدَرِهِ.

الصبـر على مواجهـة الكفـار؛ فالمواجهة تحتاج إلـى صبر، وإلى شجاعة.

حُكْـمُ اللهِ أنْ نُصلِّي، اصبر للصـلاة، حُكْمُ اللهِ أنْ نصوم، أنْ نَحُجَّ، أنْ نعتمِرَ، أنْ نؤدِّي زكاةَ أموالنا، نهانا عن الغِيبَة، وذلك يحتاج إلى صبر، نهانا عن أن نكذب، نهانا عن أن نفعل المنكرات، فاصبر على الطاعات، واصبر على الشهوات، واصبر على قضاء الله وَقَدَرِهِ، واصبر وأنت تدعو

١- إحضارًا.

٢- ردًا وإبعادًا.

إلى الله عز وجل...

هناك مُعارِضُون، ومَنْ يتَّهمُونَكَ، ومَنْ يطعنون (يثيرون الشبهات والشك) في علمك، ومن يُسَفِّهُون (أي: يستخفُّون ويُجهِّلون) أحلامَكَ، فلا تلتَفِتْ إليهم.

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤﴾

العُصاةُ نوعان:

١. شارد وهو إنسانٌ مُؤمِنٌ، ولكِنْ عندَهُ إثمٌ (عمل سيِّئ)، وله معاصِي.

٢. كافر هو إنسانٌ عقيدتُهُ فيها كُفرٌ وانحراف، فالأوَّلُ شخص عقيدته سليمة، يعني مؤمن بالله ورسولِه واليومِ الآخر، لكنْ غَرِقَ في المعاصي والذنوب، أما الثاني فيقول لك: هل عرفتَ أحدَهُم قد مات ورجع وأخبرك أنَّ هناك آخرةً وحسابًا وعقابًا؟! إياك أن تطيع أحدًا من هؤلاء، إياك أن تطيع آثمًا أو كافرًا؛ لذلك قال الله في آيات أخرى:

﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا[١] قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ[٢] هَوَىٰهُ[٣] وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا[٤]﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ[٥] إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان:١٥].

١- أغفلنا: جعلناه غافلاً ساهياً ناسياً.

٢- اتبع: أي الميل إلى الدنيا.

٣- هواه: وما تهواه نفسه.

٤- فرطا: أي أعماله سفه وضياع إفراط في متع الدنيا.

٥- أناب: أي تاب ورجع إلى الله تعالى.

الدعوة إلى الله لها ثمَنٌ باهِظ (مفرط في الغلاء):

ومِـنْ أجْلِ أنْ تصبـرَ على الطاعات، وعن الشـهوات، وعلى قضاء اللـهِ وقَدَرِهِ، مِن أجـل أن تصبرَ على الدعوة إلى الله، سـوف يكون لك خُصـومٌ (أعداء) ومعارضون، وستنشَـأ متاعبُ أحيانًا، فالدعوة لها ثمن باهظ، دفع النبيُّ في سـبيل الدعوة إلى الله تعالى أكبرَ ثَمَنٍ، أخرجوه من دياره، وقاتلـوه، ونَكَّلُوا[1] بأصحابه، والإسـلامُ وصل إلـى مرحلةٍ ظنَّ البعض أنه سينتهي عن آخره، قال أحدهم يوم الخندق: أَيَعِدُنا صاحبُكُم أنْ تُفْتَحَ علينا بلادُ قيصر وكسـرى (أي بلاد الـروم وفارس)، وأحدُنا لا يأمنُ أن يقضـي حاجته(أي يذهب للحمام)؟ انتهى الإسـلام! هذا قول منافـق، أما النبي وأصحابه المؤمنون فصبروا، فذكروا ودعوا الله تعالى، ثم جاء نصر الله والفتح في النهاية (بفتح مكة المكرمة).

فمِـنْ أجْلِ أن تصبِرَ اذكر اسـمَ ربِّك، ومن أجل أن تطمئن وتسـعَدَ وترتاح اذكر اسمَ ربِّك.

ذِكْرُ اللهِ طريقُ الثباتِ (الاستمرار بإصرار) على الدعوة:

من أجل أن تستطيع ذلك:

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾

صلاةُ الفجْرِ (في الباكر)، والظهر، والعصر (وقت الأصيل)، كذلك ذِكْرُ اللهِ تعالى في الصباح والمساء، وفي كلِّ وقتٍ وحينٍ.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾

---

١ – نكلوا: عاقبوا وعذبوا.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: بعد المغرب والعشاء قُمْ جزءًا من الليل وتَهَجَّدْ لله تعالى (صلاة قيام الليل).

﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾، وكذلك سبِّحْ اللهَ تعالى بعد الصلوات الخمس، وخصوصًا في أوقات الليل قبل النوم.

نَدَمُ الشاردين عن طريقِ الحقِّ:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾

إن هؤلاء الشاردين ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾، تراه يتحدث عن الدنيا ساعاتٍ ولا يَمَلُّ، واقفًا في الطريق، لا يقول لك عندي موعد، أما عندما تذكر له آية قرآنية يقول لك: اعذرني عندي موعد، وعندما تتحدث عن حديث شريف، يتثاءب[1]! بينما آذانه معك ساعات طويلة عند الحديث عن المال العملات، وعن البيوت، وعن الزواج، وعن التجارات، والاستيراد، والتصدير، والسفر، والرحلة، والفنادق الفاخرة والأعراس، ولما تصل إلى موضوع الدِّينِ يتثاءب ويتململ لا يريد سماع شيءٍ من أمور الدين؛ هذا غيرُ مطلوب عنده؛ لأنه لاهٍ في أمور الدنيا، لذلك قال تعالى:

﴿...وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾

اليوم الثقيل هو يوم الحساب، أي: يهملون ما في يوم الحساب (في الآخرة)، وعند مجيء هذا اليوم ينسَون فيه كلَّ مَلذَّاتِ الدنيا، ويكون عليهم هذا اليوم ثقيلًا جدًّا، ويُصعَقُون من هَوْلِ المَوقِف، ولسانُ حالهم

١- يفتح فمه كسلًا ومللًا.

يقـول – كما قال اللـه تعالـى –: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ [الفجر: ٢٤-٢٥].

جزاء المؤمن، وجزاء الكافر يوم القيامة:

الكافر يقـول – حينما يرى مكانَه في النار –: لم أَرَ خيرًا قَطُّ في كل حياتـي، مع أنه عندمـا كان في الدنيا كان يحدِّثك سـاعاتٍ عن رحلاته، عن مُتَعِهِ، عن نعيمه، أمَّا المؤمنُ فحيَاتُهُ فيها مَتاعِبُ، وتكلِيفٌ (إلزام بما اقتضى الشـرعُ فِعلَهُ أو تَرْكَه)، وضبطُ شـهواتٍ، وضبط جوارحَ (أعضاء إنسـان)، وضبط لسـانٍ، وضبط عين، وضبطُ دَخْـلٍ... وإذا عُرِضَ عليه ملايينُ دون وجْهٍ مشروعٍ قال: إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين، لكنه حينما يأتيه ملكُ الموتِ يقول: لم أرَ شَرًّا قَطُّ (أبدًا).

لـو أنَّ طالبًـا جامعِيًّا دَرَس وأخذ الشـهادةَ العُلْيَا، وقَـد نالَ الدرجةَ الأُولى، فلَو حاولَ أنْ يتذكَّر سَهَرَ الليالي في الدرس والمذاكرة، واعْتزالَ الناسِ... عندما يأخذ الدرجةَ الأُولى فإن نشوةَ النجاحِ تُنْسِيهِ كلَّ متاعبِ السَّـنةِ، وهكذا نرَى أنَّ نشوةَ الظَّفَر (نيله ما رغب من الأمر) برضوان اللهِ تُنْسِيك كلَّ متاعبِ الحياةِ.

﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾: أي: أوجدناهم من العَدَم.

﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡ﴾: أي: أَحكَمْنـا وأَتْقَنَّـا خَلْقَهُـمْ، بالأعصـابِ والعُـرُوقِ والأَوتَـار (العضلات)، ورَبَطْنـا مَفَاصِلَهـم وأعضاءَهُم رَبْطًا

١ – قدمت لحياتي: عملت أعمالًا صالحة في حياتي في الدنيا.

مُتْقَنًا بَدِيعًا، وأَمْدَدْناهُم بالقُوَّة الظاهرَةِ والبَاطنَةِ حتى تمَّ الجِسمُ واكْتَمَلَ، وتَمَكَّنَ مِن كلِّ ما يُريدُه في الحياة الدنيا؛ فالَّذِي أَوجَدَهُم على هذه الحالةِ، قادِرٌ على أنْ يُعيدَهُم بعدَ مَوتِهم لحسابهم ولجَزائِهم، والذي نَقَلَهم في هذه الدار الدنيا إلى هذه الأطوارِ الأحوال، لا يتركُهُمْ سُدًى (بلا فائدة) لا يُؤْمَرُونَ ولا يُنْهَون، ولا يُثَابُون الجزاء الطيب والخير، ولا يُعاقَبُون، ولِهذا قال:

﴿...وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

فإذَا شاء اللهُ سبحانه وتعالى جاء بأمثالهم وأَشباهِهِمْ في شِدَّة الخَلْق، وبدَّلَهُم تَبدِيلًا مُعْجِزًا لا يقدِرُ عليه أَحَدٌ سِوَاهُ، ويكونون مُطِيعِينَ للهِ سبحانه، ولكنَّ مَشيئَتَه وحِكمَتَهُ اقْتَضَتْ الإبقاءَ عليهم في الدنيا لحِسابِهِم في الآخرة.

قال ابنُ عاشُور في تفسير هذه الآية: قد جاء مِثْلُ هذه الآيةِ في آياتٍ أُخْرَى، كقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة:٦١]، وفي آية أُخرى: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المعارج:٤٠-٤١].

فـ(أمثالهم) تعني: المُمَاثِلَ في الذاتِ أو الصِّفَةِ، فيجوز أنْ يُرادَ (أمثالهم) في أشكالِ أجسادِهِم، وهو التبديل الذي سيكون في المَعَادِ (الآخرة)، والله أعلم.

١- نوجدكم من العدم.

٢- مسبوقين: أي لن نعجز عن إتباع ما نريد فيمن نريد.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩﴾

هناك عدة معاني لكلمة تذكرة:

المعنى الأول: أنَّك مُؤمِنٌ بالفِطْرة، والقُرآنُ يُذَكِّرك بشيءٍ مُنْطَبِعٍ فيك، كما لو زُرْت بلْدَة ثمَّ أُريتَ صورةَ هذه البلدة، نقول لكَ: أتعرِفُ هذه البلدةَ؟ فالتَّذْكِرةُ لِشَيْءٍ رَأيْتهُ سابِقًا، فالنَّفْس البَشَرِيَّة مَفْطُورةٌ على ذِكْر الله، وفي أصْل فِطْرتها (مهيئة ومستعدة للتمييز بين الحق والباطل) مُؤمِنةٌ بالله، والخَلْق جميعًا في ساعات الشِدَّة يعودون إلى فِطْرَتِهم، حتى المُلْحِدُ إذا رَكِبَ سفينةً أو طائِرَةً واضْطَرَبَت وكادَتْ أنْ تَقَعَ أو تغْرق يقول: يا الله! إلا أنَّ الشَّهواتِ تطْمِسُ (تمحو وتغير الصورة) هذه الفِطْرةَ وتُبْعِدُها عن صَفائِها، فَكُلُّ إنسانٍ مؤمنٌ بالفِطْرة؛ لذلك جاء هذا القرآن الكريم لِيُذَكِّرنا بأصْل فِطْرتنا.

المعنى الثاني: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾، (أي إنه تذكير لك) وأنت مُخَيَّرٌ، والدليل قوله تعالى – بعدها –: ﴿...فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩﴾.

اللهُ جلَّ وعلا أعْظَمُ وأجلّ مِنْ أنْ يقول كلامًا لا معنى له، لو أنَّنا مُجْبَرون ومُسَيَّرون لما كان هناك معنى لهذه الآية.

فمَثَلًا: لَو كنتَ راكبًا سيارةً والمِقْوَدُ بيدِكَ، لا يصِحُّ عقلًا أنْ تقولَ لشخصٍ يجلس وراءَكَ: اذهب إلى اليمين، فلو أنَّ الإنسانَ مُكْرَهٌ ومُسَيَّرٌ وليس مُخيرًا لكانت الآية لا معنى لها.

المعنى الثالث: أنَّ الله جلَّ جلاله جعل إليه ألفَ سبيلٍ (طريق أو دليل)؛ لرحمته بنا، فأنتَ قد تكون حاجتُك عندَ قَوِيٍّ أو عندَ مَلِكٍ في الدنيا، ولكن لا سبيلَ ولا طريقَ إليه، ولا تسْتطيعُ أنْ تُقابلَهُ، ولا تسْتطيعُ

أن تُرْسِلَ إليه رسالةً، لَكِنَّ مَلِكَ المُلوك سبحانه لك إليه ألفُ سبيلٍ، فالعَمل الصالحُ سبيلٌ، وتِلاوةُ القرآنِ سبيلٌ، وأن تدعوَهُ وتستغفرَه وتتوبَ إليه سبيلٌ، والإخلاصُ والوَرَعُ (التقوى والكف عن المحارم) سبيلٌ، إنْفاقُ المالِ سبيلٌ، وتربِيَةُ الأوْلادِ سبيلٌ، أنْ تكون زوْجًا صالحًا سبيلٌ، وأن تُطْعِمَ الفقراء سبيلٌ، وأن تطعمَ حيوانًا سبيلٌ، فالطرائِق إلى الخالق بِعَدد أنْفاس الخلائِق، فلو أنَّ واحِدًا عَمَّرَ مسْجِدًا، والثاني خطَبَ فيه، والثالث دَرَّس القرآن فيه، والرابع أطْعم الفقراء، والخامس أوْقَفَ أرْضًا (أي خصصها أو خصص ربحها لصالح أصحاب الحاجة) لأبْناء السبيل (المسافر والمقطوع وليس معه شيء ينفق به على سفره)، والسادس رعى الأيْتام، والسابع ألَّف كِتابًا، والثامنُ اخترع، والتاسع اكتشفَ، والعاشر بنَى مدرسةً أو مستشفى، فأيُّ عَمَلٍ يُقَرِّب إلى الله عز وجل فهو سبيل إليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ[1] وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة:٣٥]. ثم قال تعالى:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠﴾

والمعنى هنا دقيقٌ جدًّا، فمثلًا لو قلْتُ للطلاب: مَنْ شاء منكم أنْ يَنْتَسِب لِكُلِّيَّة الطِّبِّ فلْيُقَدِّم طلبًا، وأنا أعلمُ أنَّ هذه الكلِّيَّةَ لها علاماتٌ (درجات المعدلات للمستويات في الدراسة) خاصَّةٌ، فَكُلُّ طالبٍ علامتُهُ دونَ المئتين مرْفُوضٌ! فمَشِيئَتُك مشيئةُ اخْتِيارٍ، إلا أنَّ مشيئةَ إدارة كلية الطب هنا مشيئةُ فحْصٍ واختبار، ولله المَثَلُ الأعلَى، فلو قال

١ – الوسيلة: التقرب لله بطاعته كالصلاة والصدقة وما إلى ذلك.

أحدُهم: اللهمَّ ارزقني الجنةَ، ثمَّ لمْ يستَقِمْ كما أمر الله تعالى فهو كذَّاب.

مشيئةُ اللهِ تفحَصُ وتختبر مشيئتكم، فإنْ كنتم صادقين ومُخلِصينَ ودَفَعْتُم الثَّمَن، يشاءُ اللهُ ويختار لكم ما تشاؤون، لأنَّه عليمٌ بِنواياكم وصِدْقِكم وإخْلاصِكم واسْتِقامتكم وورَعِكم وتوحيدكم له، ثم قال تعالى:

﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾

رحمةُ اللهِ واسعةٌ ومبذولةٌ لكلِّ الخلق، إلا الظالمين، بكلِّ أنواعِ الظُّلم، وكُلُّ مؤمنٍ لم يَتَلَبَّسْ (يختلط عمله) بظُلم فهو في رحمة الله، والدليل قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]. (الظلم هنا بمعنى الشرك والأمن: أي الأمن من العذاب في الآخرة).

لذلك قال بعضُ العلماء الأجِلَّاء: اللهُ لا يَقبَلُ من الأعمالِ إلَّا ما كان خالِصًا وصوابًا، فخالِصًا أي: ما ابْتُغِيَ به وَجْهُ اللهِ، وصوابًا: ما وافق السُّنَّةَ، فيجب أن تعبد اللهَ وَفْقَ ما شَرَعَ.

اللهمَّ أَرِنَا الحقَّ حقًّا وارزُقْنا اتِّباعَهُ، وأَرِنَا الباطلَ باطلًا وارزقنا اجْتنابَهُ، واجعلنا ممَّن يستمعونَ القولَ فيَتَّبِعُون أحسنَهُ، وأدخلْنَا برحمتك في عبادك الصالحين.

والحمدلله ربّ العالمين.

*****

الخَاتِمَة

وقد اقْتُبِسَتْ - بتصرُّفٍ - من تفسير الشيخِ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

للاعتِبارِ والعِظَة والتَّشويقِ والبُشرَى والتَّحذيرِ والتقريرِ قال اللهُ تعالى في سورة الإنسان ما معناه:

قد مضَى على الإنسانِ وقتٌ طويلٌ قبلَ أنْ تُنفَخَ فيه الروحُ، لم يكُنْ شيئًا يُذْكَرُ، ولا يُعرَفُ له أَثَرٌ.

ولقد خَلقَهُ اللهُ تعالى مِن نُطفةٍ مُختَلِطةٍ من ماءِ الرَّجُل وماءِ المَرأةِ، ليَختبِرَه بالتكاليفِ الشرعية فيما بَعْدُ، وجعل له - مِن أجْلِ ذلك - سمعًا وبصيرةً؛ ليسمع الآياتِ ويقرأَ ويتفكر ويتدبر، ولِيَرَى الدلائلَ التي تدل على خالق الكون.

وقد بَيَّن اللهُ له طريقَ الهُدَى والضلالِ، والخيرِ والشرِّ؛ ليكونَ إمَّا مؤمنًا شاكرًا، وإما كَفُورًا جاحِدًا لله تعالى.

ولقد أَعدَّ اللهُ تعالى للكافرين في الآخرةِ قُيودًا من حديدٍ تُشَدُّ بها أَرجُلُهم، وأغلالًا تُغَلُّ بها أيدِيهم إلى أَعناقِهم، ونارًا يُحرَقون بها؛ نتيجةً لكُفرهم باللهِ، وأعمالِهم المُشينَةِ (المعيبة الفاضحة) في الدنيا.

بينما أهلُ الطاعةِ والإخلاصِ الذين يُؤدُّون حقَّ اللهِ، سيَشْرَبون في الآخِرةِ مِن كأسٍ فيها خَمرٌ غير مسكرة ممزوجةٌ بأحسَنِ أنواعِ الطِّيبِ؛ ليشربَ منها عبادُ اللهِ، يتصرفَّون فيها كما يشاؤون.

وصفاتُ هؤلاءِ المؤمنينَ أنَّهم يُوفُونَ ويؤدون ما أَوجَبوا على أَنفُسِهم مِن أفعال طاعةِ اللهِ في الدُّنيا، ويخافُون عقابَ اللهِ يومَ القيامةِ.

ومِن صفاتِ هؤلاءِ المؤمنين أيضًا أنهم يُطعِمُون الطعامَ مع حُبِّهم

لـه وحاجَتِهم إليـه، يطعمون الفقـراءَ العاجزين عن الكَسْـبِ، والأيْتَامَ، والأَسْـرَى، ويقولون - في أنفسـهم -: إنَّما نُحْسِـنُ إليكم ابتغاءَ مَرضاةِ اللـهِ، وطَلَبًـا لثَوابـه، لا نبتغي عِوضًـا أي مكافأة، ولا نَقْصِـدُ حمدًا ولا ثنـاءً منكُم؛ لأنَّنا نخافُ مِن رَبِّنا يومًا شـديدًا تَعْبِسُ فيه الوُجوه، وهو يومُ القيامةِ، حيثُ تَنْهَدُّ الجبالُ من فظاعةِ أمرِ هذا اليومِ وشِدَّةِ هَوْلِهِ وكربته.

ولكـنَّ اللـهَ بشَّـرَ المؤمنين أنه سـيُنْجِيهم من شـدائدِ ذلـك اليومِ، وسيُعطيهم حُسنًا ونُورًا في وُجوههم، وبَهجَةً وفرحًا في قلوبهم.

وسيُثِيبُهُم (يجزيهم) - بِصَبْرهم في الدنيا على الطاعة - جنةً عظيمةً يأكُلون منها ما شـاؤوا، ويلبَسُـون فيها الحريرَ الناعِـمَ، مُتَّكِئِينَ فيها على الأَسِرَّةِ المُزَيَّنةِ بفاخِرِ الثيابِ والسَّتائِرِ، لا يَرَون في الجنة حَرَّ شمسٍ، ولا شِدَّةَ بَرْدٍ، وستكون أشجارُ الجنةِ قريبةً منهم، مُظَلِّلَةً عليهم، بحيث يسهُل لهم أخْذُ وقطف ثمارِها حينَ يُريدون ويشتهون.

ويـدور عليهم الخَدَمُ بأواني الطعامِ الفِضيَّةِ، وأكوابِ الشَّـرابِ من الزجاجِ الشـفَّافِ الرَّقيقِ، على مِقدارِ ما يشتهي الشارِبون، بحيثُ لا تزيد ولا تنقُص، كما يُسْـقَى هؤلاء الأبرارُ في الجنة كأسًـا مملوءةً خمرًا غيرَ مُذْهِبَةٍ للعقل، مُزِجَتْ بالزنجبيل، ويشربون شرابًا لذيذًا، وحليبًا من عينٍ في الجنة تُسمَّى سلسبيلًا؛ لسلامة وسهولة شرابها، وطِيبِ طَعْمِها.

ويـدور على هؤلاء الأبرارِ - لخِدمتهـم - غِلمانٌ (صبيان) دائِمون على حَالهم، إذا أَبصَرْتهم ظَنَنْتَهم - لِحُسْـنِهم، وصفاءِ ألوانِهم، وإشْراقِ وُجُوهِهم - اللؤلؤَ المُضِيءَ.

وإذا أَبْصَـروا أيَّ مكانٍ في الجنة رأوا فيـه نَعيمًا لا يُدركُهُ الوصفُ، ومُلكًا عظيمًا واسعًا لا غاية له.

يَعْلُوهُم ويُجَمِّلُ أبدانَهُم ثيابٌ بَطائِنُها من الحرير الرقيقِ الأخضرِ، وظاهرُها من الحرير الدِّيباجِ الغَليظِ، ويُحَلَّونَ بأساوِرَ من الفِضةِ، وسيَسقِيهِم ربُّهم - فوقَ ذلك النعيمِ - شرابًا طاهرًا سائغًا لذيذًا لم يذوقوه مِن قَبْلُ.

ويُقالُ لهم في ذلك المَقام: «إنَّ هذا أُعِدَّ لَكُمْ مُقابِلَ أعمالكم الصالحةِ؛ لأن عَمَلَكُم في الدنيا كانَ عندَ اللهَ مَرْضِيًّا مَقبولًا».

وبعد هذا الوصف للجنة، قال الله تعالى لِحَبيبه محمدٍ ﷺ: إنَّا نحنُ نزَّلْنا عليك القرآنَ تنزيلًا مِنْ عندنا؛ لِتُذَكِّر قومَكَ بما فيه من الوعْدِ والوَعِيدِ، والثوابِ والعِقابِ، فاصبِرْ لحُكْمِ ربِّك فيما قَدَّرَهُ (أعطى ومنح)، واقْبَله، واصبِرْ لِحُكْمِهِ الدِّينيِّ فامْضِ عَليه، ولا تُطِعْ من المشركين مَنْ كان مُنغمِسًا في الشَّهواتِ، أو في الكُفرِ والضلالِ، وداوِمْ على ذِكْرِ اسمِ ربِّك، في أولِ النهار وآخرِه، ومن الليلِ فاخْضَعْ لربك، وَصَلِّ له، وتهجَّدْ له زمنًا طويلًا من الليل.

كما نبَّهَ اللهُ تعالى نبيَّه والمؤمنين بقوله: إن هؤلاء المشركين يحبُّون الدنيا بزخارفها، وينشغلون بها غافلين، ويتركون خلفَ ظُهورهم العملَ للآخرة (أي لا يعملون لها)، ولما فيه نَجَاتُهم في يومٍ عظيمِ الشَّدائِدِ.

فلا تَأْبَهْ يا محمدُ،: - والخطاب أيضًا للمؤمنين من بَعدِه -؛ إن الله قدْ خلقَهم وأَحْكَمَ خَلْقَهُم، وإذا شاء أَهْلَكَهم وأماتهم، ويجيء (يخلق) بِمَنْ يخضعُون لله، ويعبُدونه حَقَّ عبادته.

إنَّ هذه السورةَ عِظَةٌ للعالَمِين في كلِّ العُصور والأزمان، فمَنْ أراد الخيرَ لنفسِهِ في الدنيا والآخرةِ اتَّخَذَ - بالإيمانِ والتَّقوَى - طريقًا يُوصِلُهُ إلى مغفرةِ اللهِ ورِضوانه.

وما تُرِيدون أمرًا من الأُمور أو تشاؤون فِعْلَهُ - يا بني آدم - وتفعلوه إلا وهو بتقديرِ اللهِ ومَشيئَتِه؛ لأنه سبحانه عليمٌ بأَحوالِ خَلقِهِ، حكيمٌ في تَدبِيرِه وصُنْعِه.

يُدْخِلُ مَنْ يشاء مِن عباده في رحمته ورضوانه، وأَعَدَّ للظالمين المتجاوزين حدودَ اللهِ عذابًا مُوجِعًا.

فهَلْ مِنْ مُتَدبِّر؟! نسأل اللهَ العافيةَ في الدُّنيا والآخرة.

الفهرس

إهداء ٥

مقدمة ٧

سورة الإنسان: آياتها ١٧

تسميتها ١٧

سبب نزولها ١٧

فضل سورة الإنسان ٢٠

محاور السورة ٢٠

السورة: النص ومعاني الكلمات مع هداية الآيات ٢٢-٢٧

التفسير الموضوعي لسورة الإنسان ٢٩

من خواطر ومحاضرات فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي ٣٣

حكمةُ خَلْقِ الإنسان ٣٣

الوفاء بما أوجبه الله عليك ٣٨

محاسبة الإنسان يوم القيامة ٣٩

جَوهَرُ الدِّينِ معرفةُ الحلالِ والحرام..... ٤٠
من أفضل الأعمال الصالحة ٤١
وصف يوم القيامة..... ٤٤
محاسبة الله تعالى للإنسان..... ٤٥
الإيمان باليوم الآخر ٤٥
علمُ اللهِ، و حسابُهُ، وعقابُهُ..... ٤٦
ضَبْطُ الناسِ عن طريق القوانين ٤٧
جَهِّزْ جوابًا قبل أنْ تلقَى ربَّكَ ٤٨
الاستِعْلاءُ على عبادِ اللهِ ثَمَنُهُ جهنمُ ٤٩
الإنسان حينما يخاف في الدنيا يُطمئِنُه اللهُ في الآخرة ٤٩
النجاة من عذاب يوم القيامة..... ٥٠
جزاء الصبر ٥١
حلاوة الإيمان ثمنها ضبط الجوارح (أعضاء الإنسان) ٥١
مهمة الإنسان في الدنيا..... ٥٣
طاعةُ الله ثمنُ محبتِهِ لك ٥٤
ضبط الشهوات وفق منهج الله ٥٥

مشاهد من الجنة قال تعالى ٥٦
ثمن الجنة ٦٠
الآخرة خير من الدنيا وأبقى ٦١
النعيم الأرقى في الآخرة هو النظر إلى وجه الله الكريم..... ٦٢
إن الله مع المؤمنين ٦٣
مقام المؤمن في الجنة «مُلكٌ كبير» ٦٤
الإحسان ثمن الجنة..... ٦٥
طاعتك لله لا تتناسب مع الأجر العظيم المقدَّم لك..... ٦٦
عذاب الإنسان الشارد عن الله ٦٧
جنة الدنيا والآخرة ٦٨
ثياب وحلي أهل الجنة..... ٦٨
الجنة جزاء المؤمن العفيف الطاهر ٦٩
نَدَمُ الإنسانِ على الوقت الضائع..... ٧١
حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح..... ٧٢
التجارة الرابحة..... ٧٣
وعود الله للمؤمن الصالح ٧٤

طريق الهداية طريق النجاة ٧٥
الوحي لا يَمْلِكُهُ النبيُّ الكريم..... ٧٧
الدعوة إلى الله لها ثمَنٌ باهِظ (مفرط في الغلاء)..... ٧٩
نَدَمُ الشاردين عن طريقِ الحقِّ..... ٨٠
جزاء المؤمن، وجزاء الكافر يوم القيامة..... ٨١
الفهرس..... ٨٧

3alamatnisurah